تثبيت الأقدام

إيمانيات قضايانا الكبرى

محمد وفيق زين العابدين

أركـان للدراسات والأبحاث والنشر
Arkan for Studies Research and Publishing

تثبيت الأقدام

إيمانيات قضايانا الكُبرى

د. محمد وفيق زين العابدين

تثبيت الأقدام: | **Steadfast:**

إيمانيات قضايانا الكُبرى | **the Creed of our Supreme Causes**

إعداد: | **By:**

د. محمد وفيق زين العابدين | Dr. Mohamed Wafik Zeinelabdin

مركز أركان للدراسات والأبحاث والنشر

© حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الأولى: ١٤٤٧هـ / ٢٠٢٥م

بيانات الفهرسة:

التصنيف الرئيسي: فلسفة إسلامية

التصنيف الفرعي: تشريع إسلامي، عقيدة

الصفحات: ١٧٦

المقاس: ١٤سم × ٢١سم

الترقيم الدولي ISBN: ٩٧٩-٨-٩٨٩٤٧٤٣-٩-٤

الآراء الواردة في الكتاب تعبر عن وجهة نظر كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر المركز، ويمنع نقله أو نسخه أو أي جزء منه إلا بإذن مسبق من المركز.

أركان للدراسات والأبحاث والنشر
Arkan for Studies Research and Publishing

الموقع الالكتروني: www.arkansrp.com
البريد الالكتروني: info@arkansrp.com
القاهرة

كشاف الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مُقدمة	٧
المشهود والغيبي: مفهوم "الحقيقة" في الدين ومركزية الإيمان بالغيب	١٣
الدين والوعي التاريخي: السُّنن والحتميات والمصير	٢٦
عن الأسباب والمُسببات: لماذا تتأخر الغلبة؟	٣٥
لماذا لا يُمكَّن لنا؟: الاستضعاف والاستخفاف	٥٣
مركزيات الولاء: ثُلاثية الشعور والاعتقاد والاصطفاف	٦٧
النُّفرة والتثاقل: الشِّدة مُهيِّجة للزَوْغ	٧٩
وهم العجز	٩٢
الفئة الغالبة	١٢٠
التزكية بالابتلاء	١٣٣
التكريم بالاستعمال	١٤٦
زيف القيم الغربية ووهم الأنظمة الأرضية	١٥٦
خاتمة	١٦٤
ثبت المراجع	١٦٧

مقدمة

في أول يوليو ١٩٩٥م، وكنتُ وقتها طالبًا في الثانوية، وقعت للمسلمين مجزرة عُدَّت الأعنف في التاريخ الحديث بعد الحرب العالمية الثانية، أكثر من ثمانية آلاف قتيل من المسلمين في المدينة البوسنية "سربرنيتسا" في حرب البوسنة والهرسك في أقل من أسبوع، بالطبع الأعداد على وجه الدقة اكتُشفت لاحقًا بعد الكشف عن المقابر الجماعية للمسلمين، مدينة كاملة اغتُصبت نساؤها وقُتلن وقُتل أطفالها ورجالها، وقتها البوسنة لم تكن تحارب الصِّرب وحدهم، بل كانت في الحقيقة تُحارب روسيا ومعسكرها الذي كان يدعم الصِّرب، وبقية العالم الغربي يقف "مُتفرِّجًا" على المجازر التي تحدث، بل مجزرة "سربرنيتسا" هذه نفسها وقعت تحت نظر القوات الهولندية المرسَلة لحفظ "السلام" - زعموا - ولم تحرك ساكنًا!

ورغم هذا، حشدت هذه الحرب لها من المسلمين ما لم يكن يُتصور، وأحيت في عمومهم شريعة الجهاد ومنزلة الشهادة على نحو لم يكن يخطر ببال أحد، لقد ثبت المسلمون فيها ثباتًا عجيبًا، وكاد النصر يكون حليفهم لولا صلح "دايتون" الذي أجبر الغربُ عليه علي عزت بيجوفيتش، حين تأكد أن المسلمين لن ينكسروا وأن الصرب مهزومون لا محالة.

لو سُئلت اليوم عن الأيام التي عشناها في محنة البوسنة، لن أتذكرها جيدًا، فقد مرَّ عليها نحو ثلاثين عامًا، لكن الذي أتذكره

جيدًا ما خطَّته في ذاكرة مشاعري، ولسان حالها:

وإنـي لَتَـعْـرُونـي لذِكْـراكِ هِـزَّةٌ
كما انتفَضَ العُصفورُ بَلَّلَهُ القَطْرُ

كانت مشاعر مختلطة من الألم والعِزة، علّمتني قبل أي شيء آخر حقيقة؛ ما الولاء والبراء؟ وكيف يكون؟

لقد كان درسًا غاليًا!

ظلت هذه المشاعر تتجدد كلما تجددت مأساة من مآسي المسلمين، في أفغانستان وفي العراق وفي سوريا وفي غيرها، وفي مقدمتها كلها تأتي فلسطين.

حتى جاء السابع من أكتوبر الذي وقعت فيه أحداث "طوفان الأقصى"، الحدث الذي هزَّ أركان أُمتنا وأيقظ بعضًا من سُباتها العميق، الحدث الذي زلزل نفوسنا واستولى على مجامع قلوبنا، فأثار فينا الفخر والأحزان معًا، العِزة والأسى معًا، الكرامة والعجز معًا، مجددًا لمشاعر مختلطة بدأت منذ ثلاثين عامًا، وتجددت كلما رحلت مأساة وحلَّت مأساة.

فنحن نتألمُ لمُصاب إخواننا في فلسطين وأوجاعهم وصبرهم على ما هم فيه، وقد تخلّت الحكومات عنهم وحالت دون نجدة الأُمة لهم بالنفس قبل المال، وفي الوقت نفسه نعتز بثباتهم وعِزتهم وصمودهم ومقاومتهم ومحوهم عار الأُمة، نسأل الله عزَّ وجلَّ أن يتقبل شهيدهم ويشفي جريحهم ويُنزل عليهم السكينة وينصرهم ويقيِّض لهم من جُنده من ينصرهم ويستعملنا في نُصرتهم ونجدتهم.

وأنا أُحب - في هذه المقدمة - ألا أتجاوز أيام ما قبل

الطوفان، وأعني الأيام التي سبَقَته، فليس أبلغ من الطوفان؛ إلا ما قبل الطوفان، إذ كان ثَمَّ فريقان:

الأول: فريق يُعِدّ نفسه، لا لحدث الطوفان من مبادرة وإثخان فحسب، بل لما بعده من قصص عزيمة وثبات وصبر، قصص رجال أكفاء يُدافعون عن أرضهم ويدفعون عن شرف الأُمة، فهذه المشاهد لم تَدَع في النفس ذرةً لأي تباهٍ ما يمكن أن تتباهى به، مشاهد لم تُعِدْ للأُمة اعتبارَها فحسب، ولا أعادت نظرَ الناس للقدوات والرموز فقط، بل الأهم أعادت ترتيب آمال الناس وأمانيها! وكنا نظن أن زماننا فقير، فإذا به غنيٌّ غنًى يتجاوز توقعاتنا، ولو كانت هذه البطولات؛ روايات وأفلامًا مبنية على قصصٍ حقيقية؛ ربما لم يُصدِّقها أحد، والمُبهر أن هذا يصدر عن فئة؛ حُوصرت لسنوات طويلة، وخُذلت من أقرب المقربين، وحُرِمت من أغلب الإمكانات المادية!

الثاني: فريق لا يدري عن شيء، مُستغرِق في همومه اليومية، حتى هاج الطوفان، فغمر همومه وابتلع مشاكله، وصارت فلسطين آكد همومه، وفي قرارة نفسه أن هذا "لا يكفي"، فهؤلاء لم يَعُدوا شيئًا ولم يستعدوا كأهل الطوفان، لكن أنقذتهم مشاعرهم، وأسعفتهم قلوبهم وقَدْر ما كان فيها من إيمان، فعملهم كان رصيدهم عند الله تعالى، انفعلوا مع العِزة والآلام بقدر ما كان في نفوسهم من استعلاء بدينهم، قطعًا لم يبلغوا منزلة هؤلاء الذين أعدُّوا فسبقوا، ولم يستفرغوا الجهد الذي ينبغي عليهم أن يستفرغوا، لكنهم كذلك لم يسقطوا في أوحال اللامبالاة والبلادة والبله، وهذا من رحمة الله عزَّ وجلَّ ولُطفه بهم!

بالطبع، ثَمَّ فريق ثالث لم تُغيِّر الأحداث فيه شيئًا، وربما ولا على مستوى الشعور حتى، وهؤلاء ليسوا معدودين في الأحرار، فكيف يشعرون بما يعتمل في نفوس الأحرار؟! فالذي يهمنا من حيث التأمل هما الفريقان الأول والثاني؛ إذ يمكن أن نفهم من خلالهما شيئًا من معنى "الاستعمال"؛ استعمال الله عزَّ وجلَّ للمؤمن، الذي يُعبِّر عنه حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «**اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ، اللَّهُمَّ اهْدِنَا وَاهْدِ بِنَا، وَانْصُرْنَا وَانْصُرْ بِنَا**»[١]، فهذه الباء والضمير «**بنا**»، يُراد منها هذه الهداية الجليلة من الله عزَّ وجلَّ؛ هداية "الاستعمال"؛ الاستعمال في "قضية إسلام".

فالذي يسأل الله عزَّ وجلَّ الاستعمال؛ يستعمله إذا وضع نفسه مواضع الاستعمال، قال تعالى: {**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**} [سورة العنكبوت: الآية ٦٩]، وقال: {**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**} [سورة السجدة: الآية ٢٣]، فكانوا مهتدين في أنفسهم ويهدون غيرهم بالهدى الذي آتاهم الله عزَّ وجلَّ بالصبر والثقة في الله، فعملهم كان الصبر على تبِعات الهُدى والإيمان، فحين بلغوا به المُنتهى الذي أراده الله؛ استعملهم في أسمى ما يُستعمل فيه مسلم، وهو "الإمامة".

فقضايانا الكُبرى قضية إيمانية بالأساس، لا قضية حزبية أو قُطرية؛ لهذا يجب على كل مسلم أن يعتقدها، وأن يحملها، وأن

---

(١) معمر بن راشد: جامع معمر بن راشد، ملحق بمصنَّف عبد الرزاق، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المجلس العلمي بباكستان، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ، ص ٤٤٢، والحديث مرسَل لكن حسَّنه بعضهم بوصفه في فضائل الأعمال، ويُتساهل فيها.

يحملها بشرف وبعهد العبودية، وأن يبذل فيها ما بذَلَه أجداده، لا يُضيع العرفان لماضيه، هذا مغزى قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: "لا يَصلُحُ آخرُ هذه الأُمة إلا بما صَلَحَ به أوَّلُها"[١]، وهو طلب العِزة من الله تعالى وحده وبذل النفس والمال فيه عزَّ وجلَّ.

نحن ننصر المسلمين في فلسطين والسودان وباكستان وغيرها؛ لأنه واجب الإسلام، ولو أن ديننا يُعفينا من نصرتها؛ لكان لنا ذلك، لكنه لا يُعفي من ذلك أحدًا!

هذا الأصل يُلخص فكرة هذا الكتاب، فكل قضية من قضايا المسلمين، وكل ظاهرة في حياتهم لها "إيمانيات"، من عقائد وسُنن وأصول أحكام تُحيط بها، ويتشكل من خلالها وعينا بهذه القضية وهذه الظاهرة، وهذا لزوم كون المسلم "عبدًا" لله عزَّ وجلَّ.

فالإسلام لا يترك المسلم دون أن يُشكِّل نظرته تجاه كل قضية وكل ظاهرة، ويشحن وجدانه بمعانٍ يستحيل بغير الدين الوصول لها، فتمتلئ نفسه؛ حمدًا وشكرًا واستغفارًا وتسبيحًا وتكبيرًا وذكرًا، فلا يتركه فريسةً للهمِّ والكرب والأسى والحزن وحيرة العقلانية؛ لأن النفس أكثر احتياجًا للتعهد من الجسد، لذلك كان تركيبها أحد أبهر آيات وجود الله عزَّ وجلَّ، فأقسم بها تعالى في قوله: { **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا** } [سورة الشمس: الآية ٧]، وهو لا يُقسم إلا بعظيم، فإن لم تُقابَل بما يُراعيها فيما لا تقدر عليه؛ تجرعت مرارة ذلك ألمًا وضيقًا وتعاسةً وشعورًا بالخسارة والحرمان.

والحقيقة أن إيمانيات قضايا المسلمين الكبرى؛ تُسوَّد فيها

---

(١) أبو القاسم بن عساكر: تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م، ج ٤٤ ص ٢٥٦.

عشرات الصفحات، ولذلك حاولتُ أن أركز على أهم أفكارها، أبثُّ من خلالها الأمل في النفوس وأشحذ الهمم، فكل سوء ظن بالله والعياذ بالله، ثم بالأُمة، ثم بالنفس؛ إنما هو نتيجة نقص معرفته بهذه الإيمانيات، وعلى قدر ما يكتسب الإنسان من ثقة في هذه الثلاثة؛ بالله وبالمؤمنين وبنفسه؛ على قدر ما يُمكنه مقاومة الواقع وتغييره، فالمسلم لا يسترد عافيته كمسلم إلا حين يثق في الله ويستعيد ثقته في نفسه وفي المؤمنين.

المشهود والغيبي:
مفهوم "الحقيقة" في الدين ومركزية الإيمان بالغيب

يتصور الإنسان أن امتلاكه البصر والسمع وسائر حواسه التي يمتلكها إلى جانب العقل؛ جعل لديه قدرة تامة على السيطرة على الحياة والتحكم في عالمه، فما يُحسّه في هذا العالم المشهود هو منتهى أمله وغايته، لكن الحقيقة أن هذا العالم المشهود المحسوس هو جزء ضئيل جدًّا، أضأل من فتيل[١]؛ من صورة كبرى يُسيطر فيها عالم آخر هو "عالم الغيب"!

فكل ما يحدث في العالم المشهود له ما يقابله في العالم الغيبي، ولأننا لا نُدرك هذا الترتيب المقابل إلا متأخرًا، وقد لا نُدركه في الحياة مطلقًا، رغم معرفتنا به من خلال الدين أو – بعبارة أدق – رغم إخبار الدين عنه؛ قد يحدث الشك في هذا الترتيب والمصير.

هذه الحقيقة لطالما أخبرنا بها القرآن، ففيما يخص الجهاد والشهادة والنصر، نجد بين عالم الشهادة وعالم الغيب:

(١) مثال استخدمه العرب للاستصغار والاستحقار، فالفتيل هو الخيط الرفيع الذي يكون في نواة التمر، وقد ورد ذكره في القرآن في قوله تعالى: { **وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا** } [سورة النساء: الآية ٤٩] ومواضع أخرى.

عالم الشهادة (الحسي)	عالم الغيب (الإيماني)
{ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ	وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } [سورة البقرة: الآية ٢١٦]
{ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ	أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ } [سورة البقرة: الآية ٢١٤]
{ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ	فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ } [سورة المائدة: الآية ٥٢]
{ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا	بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ } [سورة آل عمران: الآية ١٦٩]
{ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ	بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ } [سورة البقرة: الآية ١٥٤]

ولنلاحظ أن القرآن استخدم تعبيرين: { **وَلَا تَحْسَبَنَّ** } و { **وَلَا تَقُولُوا** }، فلم ينهَ عن تسمية الشهيد؛ ميِّتًا فقط، بل حتى نهى عن اعتقاده ميِّتًا، وتأكيدًا لذلك أخبر أن الشهداء يُرزقون ويستبشرون ويفرحون ولا يَحْزَنون، ومنه كان الأمر الشرعي بألا يُغَسَّل الشهيد كما تُغَسَّل الأموات، ولا تُنزع عنه ثيابه بل يُدفن بها، وكان الإخبار بأن الشهادة كالنصر في المنزلة في قوله تعالى: { **قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ** } [سورة التوبة: الآية ٥٢]، لأن الشهادة ارتقاء، والارتقاء نصرٌ لا هزيمة، إذ المؤمن الذي يُقاتل باسم الله لا يُهزم أبدًا وإن قُتل! ولذلك قال المفسرون بأن قوله عزَّ وجلَّ: { **وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ** } [سورة البقرة: الآية ١٩٥]؛ لا يدخل فيه الشهيد، لأن الشهيد لا يَهلك، ولا يجوز أن يُعتقد فيه ذلك، مصداق قول أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه: "نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لمَّا نصر الله نبيَّه وأظهر الإسلام قلنا: هلم نُقيم في أموالنا ونُصْلحها، فأنزل الله تعالى: { **وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ** }، فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا وندع الجهاد"[١].

ولذلك لم تُشكِّل الشهادة حافزًا في أي معتقد مثلما فعلت في دين الإسلام، حتى الوطنية العربية حين أرادت الاستفادة من هذا الحافز لم تصلح بنفسها، واستدعت الدين لهذه الغاية.

بل لننظر كيف يوجِّه القرآن الصحابة لهذه الحقيقة، حين يقول:

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في سننه (٢٥١٢/ كتاب الجهاد)، والترمذي في سننه (٢٩٧٢/ أبواب تفسير القرآن)، والنسائي في سننه الكبرى (١٠/ ٢٨)، والبيهقي في سننه الكبرى (٩/ ١٦٨)، وغيرهم من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه موقوفًا عليه، وله حكم الرفع.

{ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ	وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ } [سورة الأنفال: الآية ٧]

فالمسلمون خرجوا لعير أبي سفيان، فخرجت قريش لحماية القافلة، فوعد الله عزَّ وجلَّ الصحابة بالنصر عليهم أو الظفر بالقافلة، لكن قلوب الصحابة مالت للعير عن النفير؛ لأن عددهم كان قليلًا؛ ثلاثمائة وثلاثة عشر صحابيًّا في مواجهة ألف من جيش قريش، لذلك وصف الله عزَّ وجلَّ القتال بـ { **ذَاتِ الشَّوْكَةِ** } من الشوك للتعبير عن الشِّدة وموجب نُفْرَتهم، إذ لم يعلموا أن ما وراء النفير أكثر بركةً من العير، فوقف النبي – صلى الله عليه وسلم – يسأل أصحابه: «**أشيروا عليَّ أيها الناس**»، فتكلم أبو بكر وعمر والمقداد، لكن النبي – صلى الله عليه وسلم – كرر السؤال، فقال سعد بن معاذ قولته المشهورة: "لكأنك تُريدنا يا رسول الله، لقد آمنا بك وصدَّقناك، فامضِ بنا لما أردتَ فوَالذي بعثك بالحق؛ إن استعرضتَ بنا البحر فخضتَه لخضناه معك ما تخلَّف منا رجل، إنا لصُبُرٌ عند الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء، لعل الله أن يُريك منا ما تقرُّ به عينُك، فسِرْ بنا على بركة الله".

فقوله: { **يُحِقَّ الْحَقَّ** } أي يُظهره، وما أنسب قول البقاعي في تفسيرها: "ليُثْبت في عالم الشهادة الثابت عنده في عالم الغيب"[١].

وقد يكون الترتيب الغيبي الذي نتكلم عنه؛ نفسيًّا وقلبيًّا، لا

(١) إبراهيم بن عمر البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب

مصيرًا وواقعًا؛ نفسي وقلبي يُهيئ الله عزَّ وجلَّ به الناس ويُمحص به الخلق ويصطفى به المؤمنين، مثلما في قول الله تعالى:

{ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ	إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } [سورة التوبة: الآيتان ٥٤: ٥٥]

يُعذِّبهم بالحيرة والقلق وعدم السكينة، فهؤلاء المنافقون لا يُقلقهم ما يحدث للمسلمين، بل تُقلقهم أموالهم وصورتهم وشهرتهم!

فكان جزاء "الحسرة" لهم أبلغ جزاء، ولنتأمل كيف أن الله تعالى لمَّا كشف عن حال المنافقين لنبيِّه صلى الله عليه وسلم من أنهم يتربصون بالمؤمنين البلاء ومكامن الضعف ليُظهروا ما هو كامن حقيقةً في صدورهم: { **وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ** } [سورة التوبة: الآية ٩٨]؛ بَشَّر المؤمنين بما هو في حكم الاستهزاء والوعيد بالمنافقين بقوله: { **عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ** } فجعل وعيدهم { **دَائِرَةُ السَّوْءِ** }؛ من جنس ما تربصوا به عباد الله الصالحين { **الدَّوَائِرَ** }، كأنه إخبار بأن بلاء المؤمنين الذي استغله المنافقون كان فيه عذابهم وجرّهم إلى الحسرة، لأنه لو لم يحصل ضَعْف المؤمنين ولم يغتروا به؛ لما

الإسلامي (القاهرة)، ج ٨ ص ٢٣١.

أنفقوا أموالهم في المكر بالحق، ولو لم ينفقوا أموالهم في ذلك لم يتحسروا على ضياعها حين يجمع الله عليهم الحسرتين، فكل مال بُذل مكرًا في الصد عن الحق أو تثبيت الباطل مصيره الضياع ومآل صاحبه إلى الحسرة، فلا يُغلب حتى يتحسر على ذهاب ماله، فيجمع الله عليه حسرتين؛ حسرة ضياع المال، ثم حسرة الانكسار { **فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ** } [سورة الأنفال: الآية ٣٦]، ففي باطن بلاء المؤمنين كان بوار المنافقين وكسر شوكتهم!

لذلك كان من أسرار الفرَج وقوانينه أنه يبدأ ويسير إلى جانب الكَرب، وكذلك اليُسر يكون إلى جانب العُسر، لكن أكثر الناس لا تنتبه لهما حتى يرتفع الكرب ويزول العُسر، ولذلك حين عبَّر القرآن عن ذلك قال: { **فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا** } [سورة الشرح: الآية ٥]، وكرر التنبيه على المجاورة مرتين[1]، وكذلك قال الصادق المصدوق عن مجاورة النصر للصبر والفرج للكرب: «**وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ**»[2]، فالذين يستعبدهم فرعون خلاصهم في

---

(١) فإن قيل، فكيف يُفهم قوله تعالى: { سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا } [سورة الطلاق: الآية ٧]؟

بعض المفسرين يقولون بأن المقصود هنا الفقر والغنى، لأن الآية وردت في هذا السياق في سياق النفقة والرزق؛ { لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا }، ولذلك جاءت { عُسْرٍ } غير معرَّفة، أو يُقال إن بعض العُسر يكون اليُسر بعده، ولا يستلزم أن يكون معه، بل قال بعض العارفين: ربما لا يكون التيسير في الدنيا ويُراد به في الآخرة، لكنه خلاف الأصل، لأن "عُسر" آية الطلاق جاء غير معرف، و "عُسر" آية الشرح معرفة تُفيد الاستغراق.

(٢) حسن بمجموع طرقه وشواهده: أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ١٩)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢٤)، والطبراني في المعجم الكبير (١١/ ١٢٣)، وعبدُ بن حُميد في مسنده (٢١٤)، وغيرهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وهو زيادة وردت في بعض طرق جزء من حديث «يا غلام إني أعلمك كلمات...».

قصره يُربيه لهم، ويهود المدينة الذين مكروا بالمؤمنين؛ تشريدهم على يد من بصَّروا الأنصار بسِره في كُتبهم[١]! فالله عزَّ وجلَّ لا يُقدِّر لعباده المؤمنين شدّة، إلا خلق لهم قبل الشِّدة أو معها؛ طريقًا تنفرج به هذه الشِّدة، ففي باطن كل عُسْر يُسْرُه، وفي جوْف كل كَرب فَرَجُه، ومع كل صبر نصر، وفي الأثر: "لو كان العُسر في جُحرٍ لطلبَهُ اليُسر حتى يُخرجه".

فالحقيقة في الشريعة لها معنًى مختلف عن الحقيقة عند الماديين والطبيعيين، الحقيقة لها جانب منظور وجانب خفي، فالخلل الحاصل عند الماديين ومن يقيسون الأشياء في الحياة بالمقاييس الدنيوية المحضة؛ يحصل حين لا يرى الإنسان عالم الغيب أو يضعُف يقينه فيه، فلا يرى الأمور على حقيقتها، كأنه مغبونٌ مغشوش.

وهذا هو الفرق بين المسلم وغير المسلم، المسلم يعتقد أن قوة فوقية عُليا "الله عزَّ وجلَّ" هي التي خلقته وخلقت الكون الذي يعيش فيه، لأن هذا النظام الذي يعيش فيه يستحيل أن يوجد صدفةً، لنتصور مثلًا تقاطعًا من أربع طرق، دون إشارات مرورية؛ ما الأقرب للحدوث، انتظام السير أم الفوضى والتصادم؟! وهكذا الكون ولله المثل الأعلى.

---

(١) ذلك أن اليهود وأهل المدينة كانت بينهما مناوشات، وكان أهل المدينة وقتها على الشرك، فكلما حدث بينهم وبين اليهود نزاع؛ توعَّدهم اليهود بالقتل والنفي حين يخرج نبي آخر الزمان الذي في كُتبهم، فلما سافر بعض الأنصار مكة وسمعوا بالنبي صلى الله عليه وسلم، تذكروا توعُّد اليهود إياهم، فقالوا نسبقهم إليه فآمنوا به، فحصل ما حصل من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم للمدينة وطرده لليهود، فكأن إغاظة اليهود لأهل المدينة وإخبارهم عنه وتوعُّدهم به سببٌ في تشريدهم!

لذلك فإن القرآن الكريم حين أراد أن يُعبر عن طبيعة نفوس المؤمنين، ماذا قال؟

قال: { **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا** } [سورة الأحزاب: الآية ٢٣]، فمدَحهم باليقين الذي جعلهم لا يُبدلون، ما استلزم استحقاقهم للرجولة!

فقوام فكرة "**الإيمان بالغيب**" ليس محض العلم والتصديق فقط، بل تصديق ماهيته التي جاء بها النص الديني بلا أي طلب حسي ونزع مادي حداثي، لذلك تُرك للإيمان، فحين يقول الله عزَّ وجلَّ: { **بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** } [سورة آل عمران: الآية ١٦٩]، فحياتهم في الجنة محقَّقة يتنعمون فيها منذ لحظة استشهادهم يقينًا، وحين يقول: { **وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } [سورة آل عمران: الآية ١٣٩]، فظهور المؤمنين على أعداء الملة حاصل لا محالة! وحين يقول: { **وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ** } [سورة الروم: الآية ٤٧]، فمهما صار المؤمن مغلوبًا في بعض الأزمنة فإن دين الله غالب في النهاية لا بُدَّ، وحين يقول الله عزَّ وجلَّ: { **وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** } [سورة الصف: الآية ٨]، فقيام شرع الله واقع بلا أدنى ريب!

ولماذا تُركت الغيبيات للإيمان القلبي والنفسي دون أي طلب حسي؟

لأن الغيبيات محل اختبار السمع والطاعة، فهي تابعة للاستجابة للتوحيد، والإمعان في تعظيم الخالق بالإمعان في التصديق، فكل نفس تستبطن معبودًا ما، هو الذي يُملي عليها حركاتها وسكناتها وأفعالها ومشاعرها، فأنت حين تقول: «**رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا**» أي بربوبيته

وأنه مالكٌ وسيدٌ وآمرٌ، لا ريب عندي في رحمته وعدله ولُطفه، لأن تدبيره وما يجري في عالم الغيب أكبر وأعظم وأرحم وأرحب بكثير مما في العالم المنظور المحسوس، وإذا أدركنا هذا المعنى؛ علمنا لِمَ كان هذا القول هو ما سنُسأل عنه عند دخولنا القبر!

فهذا الكلام البسيط في مبناه ومعناه؛ «**رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا**»؛ سهلٌ في جريانه على اللسان، لكنه عند محكات هوى النفس وما تميل إليه، وامتحان الاعتقاد والجوارح؛ أصعب ما يكون!

فإن الناس قد تؤمن بألوهية ربهم؛ لكنهم يسخطون على أقداره وقضائه، إذا خالفت عاطفتهم! قد يؤمنون بربوبيته عزَّ وجلَّ؛ لكنهم يقنطون من فضله وفَرَجه، إذا طال عليهم أمد الابتلاء!

لذلك أُمِرْنا بالأخذ بالأسباب ونُهينا عن الاعتقاد فيها، وأُمِرْنا بالجهاد ونُهينا عن اليأس، وحُببت إلينا الشهادة ونُهينا عن استعجال النصر، وأُمِرْنا بالثبات لا أن نُولِّي الأدبار، بل عُدَّ التولي يوم الزحف إحدى الكبائر في دين الإسلام!

فهذه المأمورات والمنهيات ترتد في حقيقتها لمفهوم "**الحقيقة**" في الدين، الذي يتضمن عالمًا آخر غيبيًّا، يتعين إنزاله منزلة العالم المشهود من حيث اليقين، بل على الحقيقة عالم الغيب أصدق من عالم الشهادة.

ولذلك حين نزل قول الله تعالى: ﴿ **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ** ﴾ [سورة القمر: الآية ٤٥]، وقد نزلت في مكة، في عز استضعاف الصحابة، ولنا أن نتخيل؛ هل كان يتصور أحد في مكة كلها مصير المشركين بعد سنوات قليلة؟!

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لما نزلت ﴿ **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ** ﴾ جعلتُ أقول: أيُّ جمعٍ يُهْزَم؟! فلما كان يوم بدرٍ رأيتُ النبي صلى الله عليه وسلم يَثِبُ في الدِّرعِ ويقول: ﴿ **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ** ﴾.

وحين قال الله تعالى: ﴿ **فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾، قال بعدها مباشرةً: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ** ﴾ [سورة الروم: الآيتان ٤٧: ٤٨]، كأنه يقول: أيُعجِزُ الذي يُرسل الريح وينشرها ويحركها في لمح البصر كيف يشاء؛ هينةً تارة وعتيةً تارة، رحمةً تارة وعذابًا تارة؛ أن ينتقم من المجرمين وينصر المؤمنين؟!

فليس الإنسان وحده المأمور، بل السماء والأرض والمطر والريح وكل خلق الله تعالى مأمور، وكل ما هو مأمور جُندٌ من جنود الله عزَّ وجلَّ، حتى الفاجر؛ إذا أراد الله أن ينصر دينه به! وهذا من أدهش أسباب النصر على الحقيقة، أبلغ وأعجب من الخسف والرَّدم والهدم والصيحة والطوفان والريح السموم وكل قوارع الطبيعة، إذ يعمل السبب ضد نفسه وضد طبيعته التي جُبل عليها، في الحديث: «**إِنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الفَاجِرِ**»[١]، وفي رواية: «**بِأَقْوَامٍ لَا خَلَاقَ لَهُمْ**»[٢]، ففي هذا الحديث ثلاث حقائق إيمانية مهمة مرتبطة بالحقيقة بين الشهود والغيب:

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه (٣٠٦٢/ كتاب الجهاد والسِّير) ومسلم في صحيحه (١١١/ كتاب الإيمان) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه النسائي في سننه الكبرى (٨/ ١٤٧) وابن حبان في صحيحه (١٠/ ٣٧٦)، والبزار في مسنده (١٣/ ١٨٩)، وغيرهم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

أن من الناس من لا يُستنصر بهم ولا يُؤبه لهم؛ ربما نصروا دين الله عزَّ وجلَّ؛ يحسبون أنهم من الأبرار وهم من المعدودين في اللئام والفُجار!

وأن تأييد الدين بالرجل الفاجر بقدر ما يُفيد المؤمنين ويُعزّهم؛ لا يُفيد الفاجر ولا يُعزّه، لأنه لا يُعز الإنسان إلا أن يكون مؤمنًا برًّا، وذلك معنى قوله: «**لَا خَلَاقَ لَهُمْ**» إشارة إلى حرمانه من المنفعة ومن الإعزاز.

وأن الشيطان وإن بلغ مَكْره مهما بلغ، فإنه في غاية الضعف وذلك معنى قوله تعالى: { **إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا** } [سورة النساء: الآية ٧٦]، فبأولياء الشيطان ربما نصر الله عزَّ وجلَّ أولياء الرحمن، غَلبت مشيئته المشيئات، وانكسرت لإرادته الإرادات، وأعجزَ قضاؤه الحِيَل.

ولنتأمل كيف يصف الله عزَّ وجلَّ قُدرة البشر الهشة حين يلتقي الفجور بالغرور ليتحدى القُدرة الإلهية! فيقول: { **حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ** } [سورة يونس: الآية ٢٤]؛ أي تزيّنت من فرط وهم القُدرة، فما نِعَمها ومادياتها التي تمرَّغت فيها إلا ألوان وبهارج، من إمهال الله عزَّ وجلَّ، لا امتنانًا ولا كرامة، حتى تشتد حسرة الباطل ويعظُمُ الأسى حين يأتي أمر الله عليها؛ { **وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا** }، فطَمعُهم فيها يزيد ورغبتُهم فيها تكبر، من مكر الله عزَّ وجلَّ بهم؛ فماذا حصل؟!

{ **أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا** } فلا زمن يمنع قُدرة الله – تعالى – إذا جاء أمره، ولا ترتيبات تَحُول دون قدَره النافذ، أو كما قال أبو طالب المكي: "ليس في القُدرة مسافة ولا ترتيب ولا بُعد ولا

توقيت"[١]؛ { **فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ** } كأنها لم تَعْمُر، وهذا اللفظ العجيب: { **بِالْأَمْسِ** } للتعبير عن سرعة زوال النعيم وقُرب انقطاع الأمل، كما قال ابن القيم: "ظلٌ زائل وخيالٌ زائر"[٢].

إذا تذكرنا هذا؛ تذكرنا أن الله قادرٌ على أن ينصر المؤمنين في لمح البصر، بل أقل من لمح البصر، قال تعالى: { **حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ** } [سورة يوسف: الآية ١١٠]، فنصَرَهم عند فناء قدرتهم وانتفاء أسبابهم، حتى تُدرك العقول أن إرادة الله فوق كل قانون دنيوي، وحتى تنقطع القلوب عن كل الحبائل والوسائل، فتعلم العقول وتتيقن القلوب من أن الفاعل الحقيقي المُصيِّر بإرادته للكون وقوانينه وأسبابه هو الله، لأن مشيئته تغلب كل المشيئات.

ولذلك حين نتأمل ظاهرة مثل "الفردانية"، والتمحور حول الذات؛ نجدها في الحقيقة ما هي إلا إفراز من إفرازات فساد معنى "الحقيقة" في دواخل النفس، فهذا المشهور وهذا الغني الذي يتمحور حول نفسه وينفصل عن الجماعة المؤمنة وهمومها وأوجاعها وانتصاراتها؛ لماذا يفعل ذلك؟!

لأنه مغبونٌ في معنى "الحقيقة"، مغشوش في العالم الذي يُحيط به!

---

(١) أبو طالب المكي: قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، تحقيق: د. عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية (بيروت)، الطبعة الثانية ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ج ٢ ص ٢١١.

(٢) ابن قيم الجوزية: طريق الهجرتين وباب السعادتين، الدار السلفية (القاهرة)، الطبعة الثانية ١٣٩٤هـ، ص ٢٥٢.

هذه قضية معادة مكررة، ليست جديدة، القرآن أخبرنا بها قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام، ألم يقل قارون من قبل: { **إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي** } [سورة القصص: الآية ٧٨]؟! فإذا كنتُ كذلك، فهل يحق لأحد أن يحاسبني أو يستغل جهدي وكسبي؛ شهرتي ومالي ومنصبي؟! فهو لا يُبالي بالآخرين أصلًا، ولا يمثلون له أي قيمة محركة سوى أن يكونوا في ترسانة الأتباع، فالذي يُقلقه ويؤرقه مصير هذا الكسب وهذه الشهرة.

لذلك يحذِّرنا القرآن من أن ننخدع بهذه الصورة المزيفة، فيقول: { **فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** } [سورة التوبة: الآية ٥٥]، فهذا الكسب ملأ حياتهم حيرة وقلقًا حد العذاب!

الناس تُذهل عن قراءة قُدرة الله عزَّ وجلَّ في الحوادث والمصائب والمِحن، لأن نفوسها مرتبطة بالمعقول، وقُدرة الله - تعالى - فوق العقول وكل معقول، كان أحمد بن حنبل يُخبر بأمراضه ويقول: "إنما أصف قُدرة الله تعالى فيَّ"[١]. وفي بعض وجوه تفسير قول الله تعالى: { **وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا** } [سورة الإسراء: الآية ٧٢]، قيل: من كان في الدنيا أعمى القلب عن رؤية قُدرة الله تعالى وآياته، فهو في الآخرة أشدُّ عمًى وأضلُّ سبيلًا.

وهذا يقودنا للسؤال حول علاقتنا بالماضي، وعلاقة الماضي بالحاضر من خلال السُّنن والحتميات والمصائر.

---

(١) أبو طالب المكي: قوت القلوب، مرجع سابق، ج ٢ ص ٤٦.

الدين والوعي التاريخي:
السُّنن والحتميات والمصير

إذا سألت أكثر من شخص: ماذا تفهم من هذه العبارة "**الوعي التاريخي**"؟

ربما لا تتفق إجابتان، وربما لا يفهم بعضهم المصطلح، لكن بلا شك الجميع يفهم أنه مفهوم مرتبط بالماضي أو يخص الماضي، وهذا صحيح بمقاييسنا الدنيوية، لكن القرآن الكريم حين يتكلم عن الزمن وعن تشكيل وعينا بالتاريخ، ماذا يفعل؟

يتكلم عنه لا بصيغة الماضي فقط، بل أيضًا الحاضر والمستقبل؛ {**أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**} [سورة النحل: الآية ١]، {**إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**} [سورة الأعراف: الآية ١٢٨]، {**وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا**} [سورة الأحزاب: الآية ٢٧]، {**أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ**} [سورة البقرة: الآية ٨٦].

وما أبلغ قوله تعالى: {**وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**} [سورة القصص: الآية ٥]، فتعبير {**الْوَارِثِينَ**} تعبير مدهش، فأصله في التركات التي تنتقل بين أفراد الناس، لا الأُمم، لكنه استعمله هنا لتأكيد زوال مُلك المستكبرين الذين استضعفوهم بالكلية، وتأكيد أن

منَّة الله تعالى عليهم بتمكين المستضعفين منهم قريبة الوقوع آتية لا محالة، فإرادة المنَّ عليهم ملازمة لاستضعافهم، تضيق بهم الأرض، لكن أسباب توريثهم تُقدَّر في السماء، ونظير هذا قوله تعالى: { **إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ** } [سورة الأعراف: الآية ٥٦] أي مُلازمة لإحسانهم.

لذلك يحث القرآن المؤمنين على المبادرة بالجهاد فيقول: { **وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ** } [سورة النساء: الآية ١٠٤]، أي لا تضعفوا في طلبهم، كأنه يقول أجهِزوا عليهم، فإن غلبكم لهم وشيك الحصول.

فالقرآن يطوي الزمن والأحداث ليؤكد حتميات العقيدة الإيمانية، ويوضح السُّنن الإلهية التي لا تقبل الشك، ويُبين المصائر التي يُذْهل عنها، فيجعل من هذه الحتميات والسُّنن والمصائر مجالات عمل وحركة، فلا تظل أسيرة الذهن، حبيسة حيز الوعود في مجالات زمنية مختلفة، فيجعل من حتميات: { **إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** } [سورة الأعراف: الآية ١٢٨]، { **وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** } [سورة الصف: الآية ٨].

ومن سُنن: الاستدراج والإملاء والاستبدال والتدافع والأسباب والمداولة، ومن مصائر: { **وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا** } [سورة الأعراف: الآية ١٦٨]، { **وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } [سورة آل عمران: الآية ١٣٩]، { **فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ** } [سورة النساء: الآية ١٠٤]؛ يجعل من كل ذلك محكَّات لاختبار الإيمان والصبر والشعور والعمل.

لذلك كان من أغراض تكثير القصص القرآني؛ تغذية المسلم بالعمق التاريخي لقضيته الإيمانية، بوصفها قضية ضاربة في الجذور، فالمؤمنون الصابرون الصامدون في "غزة" في فلسطين؛ امتداد للمؤمنين الذين صبروا مع طالوت وثبتوا معه، والمستضعفون الذين حُرقوا في مجزرة "التضامن" في سوريا، والذين قُصفوا يوم مجزرة "مستشفى المعمداني" في فلسطين؛ امتداد للمؤمنين الذين حُرِّقوا في الأخدود.

فلا نستغرب أن يُوجِّه تيار التغريب سهام نقده لهذه القصص بوصفها من الأساطير! إذ أدرك جيدًا أنها ليست لتسلية المؤمنين فحسب، بل أيضًا للاستعداد وليُعلم ماذا يُراد بأولياء الله!

إن وجه الشبه بين هذه القصص، في العداوة المتجذرة في القلوب، المتأصلة في النفوس، الناشئة عن اختلاف أصل الدين، فدين المؤمنين واحد، وإن قصة أصحاب الأخدود - مثلًا - كما أخبرتنا أن المؤمنين عُذبوا عذابًا لا يُتصور؛ أخبرتنا أنهم كان لديهم من اليقين ما يعلو على فتنة الملعونين رغم شدتها! وأخبرتنا أمرًا آخرَ مهمًّا، يستلزمه رفع الوحي وبقاء عِبرة القصة وغايتها؛ وهو أنها كما كانت عظةً لقريش وتثبيتًا للمؤمنين الأوائل وتنبيهًا لهم على ما يلزمهم من مُصابرة الضعف واحتمال المكاره في دينهم؛ فهي عظةٌ لنا للسبب نفسه، وستكون عظةً لمن بعدنا للسبب نفسه؛ أخبرتنا أن الدنيا دار امتحان، فمؤمنو أصحاب الأخدود ليسوا هم أصحاب الأخدود وحدهم، بل هم المعذَّبون من أجل دينهم في كل زمان ومكان. والملعونون لأجل تعذيبهم الذين تشبّعت حواسُّهم المشوَّهة ونفوسهم المنحطة بهذه الوحشية؛ هم أنفسهم مُعذِّبو المؤمنين في كل زمان ومكان.

وكما صدَق القرآن في المصير الذي انتظر بعض المؤمنين في الدنيا، فإنه صادق في المصير الذي ينتظر الذين عذَّبوهم، لأن { **وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** } [سورة البروج: الآية ٩]؛ تام الشهادة لا يغيب عنه شيء، ولا يكون شيء إلا بعلمه وقَدَره، ومن كانت هذه صفته كما اصطفى أولياءه لا يُهمل أعداءه، فبطْشه بهم شديد غاية الشِّدة التي تُناسب ربوبيته العُظمى وقدرته الكبرى وجبروته الذي هو أعزُّ من كل جبروت، شدّة يزيد عُنْفها على عنف طواغيت الدنيا مجتمعين أضعافًا مُضاعفة.

فكل نصرِ المؤمنين منذ الخليقة نصرٌ واحد، وكل نكبةٍ أصابت المؤمنين منذ الخليقة نكبةٌ واحدة، وهو سر إحياء ذكرى المآسي القديمة كلما تجددت غيرها، واستدعائها من التاريخ كأنها هي التي وقعت للتو، وإثارتها مشاعر من لم يحضرها!

ومنه نفهم لماذا استرسل القرآن في الحديث عن اليهود، ولماذا فصَّل في تاريخ أُمتهم أكثر من أي أُمة أخرى.

إن السر في تشخيص النفسيات الشريرة لليهود، وما فيها من نكران وغدر وجحود وقسوة وأشنع أنواع الكُفر والتنكيل بأولياء الله عزَّ وجلَّ؛ السر في ذلك كله هو { **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا** } [سورة المائدة: الآية ٨٢]، فجعلهم قُرناء للمشركين في شدة العداوة؛ لأن كفر اليهود كما قال ابن كثير: "عِناد وجحود ومُباهتةٌ للحق وغَمْط للناس"[١].

وفي حديث المعراج الطويل الذي يرويه البخاري وغيره أن

(١) إسماعيل بن عمر بن كثير: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ج ٣ ص ١٦٦.

نبي الله موسى عليه السلام لما سَلم عليه النبي صلى الله عليه وسلم؛ بكى، فقيل له: ما يُبْكيكَ؟! قال: "أبكي لأن غُلامًا بُعِثَ بعدي يدخُلُ الجنةَ من أُمته أكثر ممن يدخُلُها من أُمتي"، أي من الذين اتبعوه قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم! بكى موسى بكاء الأب على ابنه من الحُزن عليه إذا حاد وضل الطريق، فشفقته بقومه كانت من شفقة الوالد بولده، قال الطيبي: "وبكاء موسى عليه السلام من رقته لقومه والشفقة عليهم، حيث لم ينتفعوا بمتابعته انتفاع أُمة الإسلام بمتابعة نبيهم"، فلنتأمل مدى ضلال اليهود وفساد طبعهم، إذ خصهم الله تعالى بهذا النبي جليل القدر، شديد الشفقة بهم والحرص عليهم، كليم الله عز وجل، ومع ذلك ضلوا وكان منهم ما كان من الفساد والظلم والعدوان وقسوة الطبع وقتل الأنبياء والافتراء على الله عز وجل.

لذلك قدَّم القرآن ذِكْرَهم في العداوة على ذِكْر المشركين ليُنبه على أنهم أشدّ في العداوة من أي أحد، وفي الأثر: "ما خَلا يَهُودِيٌّ بِمُسْلِمٍ إلّا هَمَّ بِقَتْلِهِ"، وفي رواية: "إلّا حَدَّثَ نَفْسَهُ بِقَتْلِهِ"، يستحلون سرقة من يُخالفهم في الدين وغصب ماله وملكه وخديعته والمكر به. فالمستعمرات التي يسمونها "مستوطنات" التي بُنيت على أرض فلسطين وأملاك المسلمين؛ ما هي إلا مظهر من مظاهر هذه الأخلاق، وقديمًا فعلوا ذلك في أطيان المصريين وسرقة أراضي الفلاحين، لذلك قيل إن من مذهب اليهود إيصال الشر إلى من يُخالفهم في الدين بأي طريق كان، لذلك يُخبرنا القرآن ألا نثق بهم مطلقًا، وألا نتهاون معهم أبدًا، لا لأنهم أعداء لنا فحسب أو لأنهم يمكرون بنا ويتربصون بنا الدوائر، بل قبل كل ذلك لأنهم عاندوا الله عزَّ وجلَّ وجحدوا حقه تعالى وقتلوا أنبياءه، حتى نبينا - صلى الله

عليه وسلم - لم يسلم من آذاهم ومن محاولة قتله.

فنحن نشتد في عداوتهم غيرةً لله عزَّ وجلَّ وعلى رُسله، فالمؤمن يجب أن يغار لله -عزَّ وجلَّ- ويغار على دينه، لا أن يكون باردًا لا حمية له. في الأثر أن عبد الله بن حُذافة السَّهْمِي - رضي الله عنه - لما أسره الروم كان يجوع ويعطش، فيعرضون عليه الخمر ولحم الخنزير، فيأبى ويقول: "أما إني أعلمُ أنها قد حلَّت لي بالضرورة، ولكن أكره أن أُشمتكم بالإسلام"!

ولنتأمَّل كيف استخدمت الآية في {**لَتَجِدَنَّ**} لام القسم والقصد منها التأكيد، ثم زادت التأكيد بنون التوكيد في نهاية الكلمة؛ للتشديد على خطورة هذا التنبيه الذي في الآية، وخطورة هذه العداوة، فما من عداوة بشر أعظم من هذه العداوة وأشدّ وأقسى!

ولنلاحظ دقة التعبير القرآني: {**أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا**}، فتعبير {**لِلَّذِينَ آمَنُوا**} أي للذين أظهروا الإيمان، فهؤلاء اليهود لا يشتدون في عداوة المنافقين والذين يُمالئونهم، بل يشتدون في عداوة الذين يُظهرون الإيمان ويتمسكون بدينهم، لأنه كما قال البقاعي: "من صدق في إيمانه؛ لا يواليهم بقلبه ولا بلسانه"[1]، ولذلك قال الله عزَّ وجلَّ عنهم: {**وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنهم ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ طُغْيانًا وكُفْرًا**} [سورة المائدة: الآية ٦٤]، وكررها مرتين في القرآن، وقال: {**تَرى كَثِيرًا مِنهم يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا**} [سورة المائدة: الآية ٨٠].

(١) إبراهيم بن عمر البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مرجع سابق، ج ٦ ص ٢٦٨.

فالمؤمنون وحدة واحدة، لا يتجزأ ولاؤهم ولا يتجزأ براؤهم، ولاؤهم واحد في كل زمان ومكان، وبراؤهم واحد في كل زمان ومكان.

لذلك قال تعالى: { **قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ** } [سورة التوبة: الآيتان ١٤: ١٥]، فليس يشف صدوركم فقط، بل صدور المؤمنين، فالقتال والنصر كان لفئة منهم، لكن شفاء الصدر وذهاب غيظ القلب كان لعموم المؤمنين، لأن كُل مؤمن يُسرُّ بهوان الكفار وهزيمتهم.

لنتخيل معًا هذا المشهد من المشاهد التي جلس النبي - صلى الله عليه وسلم - يحكي فيها لأصحابه عن مؤمنين في أزمنة أخرى متأخرة، حكايات ربما قابلنا أبطالها أو سنقابل أبطالها أو كُنا أبطالها، يجلس إليهم يومًا فيقول: «**لاَ يَزَالُ طَائِفَةٌ من أمتي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ**»[١]، ومرةً أخرى يقول لأصحابه: «**إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا، الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ قَبْضٍ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ**»، فيستدرك أصحابه: منهم يا رسول الله؟ فيردُّ صلى الله عليه وسلم: «**بل مِنْكُمْ**»!

أتساءل: ماذا يُريد النبي - صلى الله عليه وسلم - من ذلك؟

(١) صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه (٧٣١١/ كتاب الاعتصام بالكتاب) من حديث المغيرة رضي الله عنه، ومسلم في صحيحه (١٥٦/ كتاب الإيمان) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، ومسلم في صحيحه (١٩٢٠/ كتاب الإمارة) من حديث ثوبان رضي الله عنه، ومسلم في صحيحه (١٠٧٣/ كتاب الإمارة) من حديث معاوية رضي الله عنه.

قد يقول قائل: يُريد أن يُبشر هؤلاء المؤمنين الذين لم يأتوا بعد، أو يصبِّرهم ويربط على قلوبهم ليتحملوا مشاقَّ الجهاد والدعوة في زمان الغربة.

نعم، لكني أقصد: ماذا أراد - صلى الله عليه وسلم - من أصحابه، وهم المخاطبون ابتداءً؟!

يُخيَّل إليّ أن النبي - صلى الله عليه وسلم - يفتح لأصحابه كتاب الزمن، ليُشاهدوا مصائر جهادهم الذي بدأوه، ورفقاء بذلٍ لم يروهم، فقضية المسلمين قضية واحدة؛ نصرهم واحد ونكبَتُهم واحدة، وفي الحديث: «**أُمَّتِي كَالْغَيْثِ لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ**»، يوضحُ ابن تيمية معناه بكلام بديع فيقول: "معناه في المتأخرين من يُشبه المتقدمين ويُقاربهم، حتى أنه من قوة المُشابهة والمقارنة؛ لا يدري الذي ينظر إليه أهذا خيرٌ أم هذا"[1]؟!

والمراد تبشير المتأخرين بأن فيهم من يُقارب السابقين، لا أنه يَسبقهم في الإيمان أو يَفضُلهم، فالله عزَّ وجلَّ يقول: { **لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى** } [سورة الحديد: الآية ١٠].

بل يتعجب النبي - صلى الله عليه وسلم - من أحوال أهل الإيمان والثبات في زمان المتأخرين، حين يسأله الصحابة رضي الله عنهم: «**أَيُّ النَّاسِ أَعْجَبُ إيمَانًا؟**»، قال: «**قَوْمٌ يَأْتُونَ بَعْدِي يُؤْمِنُونَ بِالْوَرَقِ الْمُعَلَّقِ!**»، والحديث فيه ضعف لكن حسَّنه بعضهم، ومعناه

(١) أحمد بن عبد الحليم بن تيمية: مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف (المدينة النبوية)، طبعة ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م، ج ١١ ص ٣٧١.

أنهم يؤمنون بكتاب الله عزَّ وجلَّ ولم يروا رُسله ولم يشهدوا مشاهد الإيمان التي كانت في زمن الصحابة، أو نقلها الصحابة للتابعين ونقلها التابعون لتابعيهم، يؤمنون بالمقروء الذي بين أيديهم ويدفعون عنه ويبذلون له الغالي والنفيس، فإيمانهم أعجبُ من إيمان غيرهم.

عن الأسباب والمُسببات:
لماذا تتأخر الغلبة؟

لا ريب أن الله عزَّ وجلَّ وعد المؤمنين من عباده بالنصر، لكنه كما وعدهم بالنصر؛ وضع لهذا النصر أسبابًا وطُرقًا، أوجب على المؤمنين رعايتها، فتأخُّر النصر ليس في موعود الله تعالى، بل تأخُّر في أخذ المؤمنين بأسبابه، ولو أخذوا بها لنالوا التمكين بلا أدنى ريب.

فالدعامة الرئيسية التي يقوم عليها كل تغيير هي "**الأخذ بالأسباب**"، والأخذ المُراد هو الأخذ الحقيقي، لا الاعتقاد المُجرد بالأخذ، فمن أهم الأزمات التي وقعنا فيها، أننا لم نتجاوز في علاقتنا بالأسباب معنى الاعتقاد المجرد (كضد للاعتقاد المادي في الأسباب ذاتها) على حساب ترسيخ الأخذ نفسه في الأُمة، ولو تدبَّرنا القرآن لوجدناه اعتنى كثيرًا بقضية الأخذ بالأسباب أكثر من اعتنائه بالاعتقاد فيها، وهي حكمة رئيسية من تكرار قصص الأنبياء والصالحين، ومن أعجب ما ورد في ذلك قول الله تعالى: { **إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ** } [سورة آل عمران: الآية ١٤٠]، ولننظر كيف ناقشت باختصار عجيب سبب مُصابهم؛ إذ مع شدة إيمانهم وقوة حُبهم لله ورسوله لم يستحقوا النصر، لماذا؟!

لأن النصر ليس حقًّا إلهيًّا لمن اعتقد أسبابه، بل هو حق طبيعي

لمن أخذ بأسبابه، وهذا هو منطق السُّنن الإلهية في التبديل والتغيير والتمكين!

لذلك، نُلاحظ أن أكمل من توكَّل على الله عزَّ وجلَّ هو نبينا، وهو - صلى الله عليه وسلم - أكمل من أخذ بالأسباب! فمن القصص العجيبة التي ربما لا يُنتبه لها في أخذه بالأسباب؛ أنه حين همَّ بدخول بيت المقدس بعدما أُسري به إليه بالبُراق؛ ربطه بالحلقة ثم دخل المسجد! فالنبي - صلى الله عليه وسلم - لم يخف أن يفر منه وقد سخَّره له الذي يقول للشيء كُن فيكون جلَّ في علاه، إنما ربطه - صلى الله عليه وسلم - جريًا على عادته في الأخذ بالأسباب التي يسَّرها له، فإيمانه العظيم بقدرة الله - عزَّ وجلَّ - التي ساقته حتى باب المقدس؛ لم تمنعه من استيفاء ما أمره الله عزَّ وجلَّ به من الأخذ بالأسباب، ولماذا فعل صلى الله عليه وسلم ذلك؟!

عبرةً لأُمته، فالإيمان بأن الله تعالى كما يُدبر الأسباب يُبطلها، وكما يُجريها يَصرفها، وكما يُيسّرها يُعسّرها؛ لا يرفع عن المؤمن العمل بها مهما كانت بسيطة، وإن الذين ركنوا إلى ضعفهم وكسلهم قال الله فيهم: { **فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا** } [سورة النساء: الآية ٩٧]، فجوارح المؤمن تعمل وقلبه يتوكل، والأسباب ليست بوجودها، بل بالتوكل على من أوجدها، وليست بقوتها، بل بإيمان الذي يُحركها.

فالمتعين على المسلم الأخذ بالأسباب لا الاعتقاد فيها، لأن اعتقاده الراسخ الذي لا يتزعزع ينبغي أن يكون في قدرة الله جلَّ في علاه، لأنه مُنشئ للمسببات (النتائج التي تُخلفها الأسباب) وليست الأسباب هي المُنشئة لها، إنما الأسباب والمُسببات معًا خلقُ الله.

فغاية الأسباب "الافتقار"، لذلك جعلها الله عزَّ وجلَّ تجري في حدود مشيئته، فالنهي عن الاعتقاد فيها؛ لأنها مُسخرة مأمورة، والفرَج والعون والنصر والغلبة والفتح، كله يبدأ في نفس المؤمن، لا من الأسباب.

وإنما العلة في تشريع الأسباب والإلزام بها أن القيام بالأسباب من صميم العبودية لله تعالى، فتحقيقها تحقيق للعبودية، لذلك ترتد بكل أشكالها إلى العلم بالله والعمل لله، فقانون الأسباب لا يعتمد على قوة الأسباب ولا وضوحها ولا حب الإنسان لها أو كراهيته ونفوره منها، بل يعتمد على الرصيد الإيماني عنده، فربما تأتي الأسباب ضعيفة جدًّا بحيث لا ينتبه لها كل أحد، فيغفل عنها أو يتقالها ويُفرط فيها، فيُضيع الأمر بالأخذ بها!

الحقيقة، أن الأسباب غالبًا ما تأتي ضعيفة، إذ ذلك أدعى لترك التعلق بها وجعل التعلق كله في الله تعالى.

ولنتأمل كيف أن آية الإعداد { **وَأَعِدُّوا لَهُمْ** } قيَّدت الإعداد المطلوب بـ { **مَا اسْتَطَعْتُمْ** } [سورة الأنفال: الآية ٦٠]، أي ما تقدرون عليه مما أمكنكم، وبعض الناس جعل ذلك سبيلًا لتثبيط المؤمنين، فظن أن المقصود أن تُعِدّ بالنظر إلى ما أعدَّه عدوك، وهذا خطأ، فالمقصود أن تُعِدّ ما أمكنك وما تقدر عليه، لا أقل من ذلك ولا أكثر من ذلك أيضًا، فليس بشرط أن تفوق في إعدادك قوتهم أو تفوق قُدراتهم، بل الله عزَّ وجلَّ يطلب منك أن تُعطي ما تملك وتبذل ما تقدر عليه، لأن المؤمن يُقاتل بإيمانه، وما الأسباب - مهما كان تأثيرها في أي معركة - إلا لاستفراغ كل طاقة موجبة لجلب النصر عند فناء هذه الأسباب.

لننظر مثلًا لموضوع "**النصر**"، ولنلاحظ تعبير القرآن بـ { **إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ** }، في قوله تعالى: { **وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ** } [سورة آل عمران: الآية ١٢٦]، قال السعدي: "أي لا تعتمدوا على ما معكم من الأسباب، بل الأسباب فيها طمأنينة لقلوبكم، وأما النصر الحقيقي الذي لا مُعارض له، فهو مشيئة الله لنصر من يشاء من عباده، فإنه إن شاء نصر من معه الأسباب كما هي سُنته في خلقه، وإن شاء نصر المُستضعفين الأذلين، ليُبين لعباده أن الأمر كله بيديه""[1].

لذلك كان أحد أعظم أسماء الله تعالى "النصير" الذي يأمر القرآن بأن يُتخذ وليًا ويُبتغى منه النصر، لأن القوة كلها لله تعالى، وهو الذي أوجد منها ما في أيدي الناس وفي نفوسهم، وهو القادر على سلبها منهم واستبدالهم فيها وتعطيلها وهي بين أيديهم!

فالنصر قضية لا يمكن فصل البُعد العقدي فيها عن المادي، لذلك يُؤكد الشرع بوضوح على أن القلق في النصر يرجع إلى الخلل في التوكل، إما بالإشراك بالله في الاعتمادية بالاعتقاد في الأسباب، أو التقصير تجاه أقداره عزَّ وجلَّ بعدم الأخذ كافيةً بالأسباب.

ومنه تفهم قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**هل تُرزقون وتنصرون إلا بضعفائكم**»[2]! أي ضعفائكم في الحال لا في الإيمان،

---

(١) عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة (بيروت)، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م، ص ١٤٦.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود في سننه (٢٥٩٤/ كتاب الجهاد)، والترمذي في سننه (١٧٠٢/ أبواب الجهاد)، والنسائي في سننه (٣١٧٩/ كتاب الجهاد)، وأحمد في مسنده (٥/ ١٩٨)، وغيرهم من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

فالذي نفعهم هو الإيمان، ولم ينفعهم وحدهم، بل نفعهم ونفع كل المؤمنين، وكان بعض السلف يقول: "اتقوا مجانيق الضعفاء" أي دعواتهم، لأنهم أشد إخلاصًا لخلو قلوبهم من التعلق، وبُعدهم عن الركون لأنفسهم.

ونفهم كذلك كيف تعمل القدرة الربانية وكيف تهزم الجبابرة والمتكبرين، بل كيف تسحقهم وتستأصلهم، فالنمرود حين تألّه في الأرض وقال: { **أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ** } [سورة البقرة: الآية ٢٥٨]؛ أهلكه الله عز وجل بما هو في غاية الحقارة "ذُبابة"، وقوم عادٍ حين اغتروا بقوة أجسادهم وقالوا: { **مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً** } [سورة فُصلت: الآية ١٥]؛ استأصل الله أجسادهم بما لم يتصوروا أن يؤثر في صلابة أجسادهم "الريح"، حتى قال بعض المفسرين: "طارت أجسامهم كالريش"، فلم تثبت أجسادهم في الأرض، ولم تنفعهم قوتهم!

لذلك كان من أجمع الدعاء الذي علمنا النبي صلى الله عليه وسلم: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ عَضُدِي وَنَصِيرِي، بِكَ أَحُولُ، وَبِكَ أَصُولُ، وَبِكَ أُقَاتِلُ**»[1]، فبـ "أنت" نُثبت كمال القدرة لله، و بـ "بك" نُثبت تمام العجز لأنفسنا، فالمراد الدفع والمنع، ومنه الذكر الجليل: «**لا حول ولا قوة إلا بالله**»، أي لا حيلة لي في دفع سوء ولا درك قوةٍ إلا بالله

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في سننه (٢٦٣٢/ كتاب الجهاد)، والترمذي في سننه (٣٥٨٤/ أبواب الدعوات)، وأحمد في مسنده (٢٠/ ٢٥٥)، والنسائي في سننه الكبرى (٨/ ٢٩)، وغيرهم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٧٥)، وعبد الرزاق في مصنفه (٥/ ٢٥٠)، وسعيد بن منصور في سننه (٢/ ٢٤٤)، وغيرهم من حديث أبي مِجْلَز لاحق بن حُميد مرسلًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم.
وللشق الثاني من الحديث طرق أخرى عن صُهيب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

العظيم، ولننظر كيف أن مدار "الاستخارة" على التبرؤ من العلم كما التبرؤ من الحَوْل والقوّة: «**فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلاَ أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلاَ أَعْلَمُ**»[١]؛ اعترافًا بجهله بعواقب الأمور كما عجزه عن تحصيلها.

فأكثر عجز الإنسان من المبالغة في النظر في عواقب الأمور، وكان بعض السلف يقول: "النَّظرُ في عواقبِ الأمور من أحوال العاجزين، والهجوم على المواردِ من أحوال السَّائرين"[٢]، أي المُبادرة والإقبال على الأحوال واغتنام الفُرص والأخذ بالأسباب، فهذه صفة المتوكل السائر إلى الله عزَّ وجلَّ، فمن جعل نظره في العاقبة حيث مراد صاحب الأمر تعالى وما أمر به؛ أحسن الله فيه المصير.

أما إخراج الأسباب عن حقيقتها وجعلها كالإيمان في القيمة، بحُجة أن النبي - صلى الله عليه وسلم - ترك القتال في مكة لضعف القوة واحتمالية الهزيمة، فهذا افتراض غريب! لأنه - صلى الله عليه وسلم - لم يُؤمر أصلًا بالقتال، بل في بيعة العقبة طلب بعض الأنصار أن يقاتلوا لما صرخ الشيطان فيهم، فأبى عليهم النبي - صلى الله عليه وسلم - ذلك وقال: «**لَمْ أُؤمَرْ بِذَلِكَ**»، فالذي يقول هذه الحجة الواهية كأنه يتهم الله عزَّ وجلَّ في أمره وشرعه، وهو الذي لو شاء - جلَّ في علاه - لأطبق على المشركين الأخشبين[٣]

(١) صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه (٦٣٨٢/ كتاب الدعوات) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتب العلمية (بيروت) عن مطبعة السعادة (مصر)، ١٤٠٩هـ، ج ١٠ ص ٣٥٤.

(٣) جبلا مكة أبي قُبَيْس، ومقابله قُعيقِعان، سُميا بذلك لصلابتهما وغلظ حجارتهما. في الحديث الصحيح الذي ترويه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، أنها سألت النبي

كما أخبر جبريل نبيه صلى الله عليه وسلم!

والنبي - صلى الله عليه وسلم - لم يُجاهد المشركين أبدًا إلا وهم أكثر عددًا وقوة، لا في بدر ولا أُحد ولا الخندق ولا خيبر ولا مُؤتة ولا حُنين ولا تبوك، بل لما أعجبتهم كثرتهم في حُنين تأخَّر عنهم النصر وقال الله لهم: ﴿ **وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا** ﴾ [سورة التوبة: الآية ٢٥]، لأنهم تجاوزوا للاعتقاد في الأسباب، فقالوا لن نُغلب من قلة، فكان الدرس أن كثرتهم لم تنفعهم!

أذكُر الآن هذه العبارة العبقرية التي انتفعتُ بها قديمًا ولا أنساها أبدًا: "المُستعدُ للشيء تكفيه أضعف أسبابه"، فالأمر نفسي أكثر منه ماديًّا، وإيماني أكثر منه حسيًّا، والقرآن يُشير للأخذ بالأسباب حتى في أضعف الحالات، ولا يدعو لا صراحةً ولا ضمنًا لترك الأسباب في أي حال، ولا أدل على ذلك من قول

صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشدَّ من يوم أُحد؟ فقال: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بن عَبْدِ كُلَالٍ - وهو من سادات ثقيف - فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ - موضع قُرب مكة، والمراد أنني لم أفطن لنفسي إلى أين أنا ذاهب لكثرة همي الذي كنت فيه والتفكير الذي انشغلت به - فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رُدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبَيْنِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا».

أخرجه البخاري في صحيحه (٣٢٣١/ كتاب بدء الخلق)، ومسلم في صحيحه (١٧٩٥/ كتاب الجهاد والسِّيَر)، من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

الله تعالى لمريم عليها السلام: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ [سورة مريم: الآية ٢٥] مع شدّة ضعفها في حال الولادة، ووحدتها واعتزالها الناس، وكان عزَّ وجلَّ قادرًا على أن يرزقها بغير هذا الأمر البسيط، والنبي صلى الله عليه وسلم تدرَّع في الحروب بالدروع حفظًا لنفسه، مع أن الله عز وجل عصمه القتل وقال له: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٧].

لأن الله عزَّ وجلَّ يُريد من المؤمن؛ إيمانه الراسخ لا طاقته الهزيلة، واستجابته للأمر لا قلة الحيلة، واعتقاده في مُسبب الأسباب عزَّ وجلَّ لا ظنه في قُدرة الأسباب، لأن الذي سنَّ الأسباب وشرع الأخذ بها عزَّ وجلَّ؛ قادرٌ على خرق الأسباب عند تعارضها مع عهوده الربانية، وربما نصر الله عزَّ وجلَّ أولياءه بأهون الأسباب، ضرب موسى عليه السلام الأرض بعصاه ليفر مع قومه من فرعون، فأغرق الله بالضربة نفسها فرعون وجنوده، وخرج النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه لقافلة بني سُفيان، فأمكنهم الله بخروجهم نفسه من فراعين مكة، الذي يَملِك المصائر هو الله، الذي يُمسِك هو الله والذي يَبسُط هو الله، المُقتدرُ الذي لا يمتنع عليه ما أراده، ولا مُراد يَنفُذ غير مُراده، ليكون حُسن الظن فيه غيرَ مُتناهٍ لا في التصور ولا في الرجاء، حيثما أمّلت فيه تجده عند أملِكَ وأبعد.

فحُسن الظن بالله أن يأخذ المسلم بأسبابه ويثق في أقداره، لا أن يوجب على الله عزَّ وجلَّ ما لم يأذن به، فيسخط إذا طال البلاء أو اشتد، ويندم على موقف الحقّ إذا تأخَّر الفَرَج، حُسن الظن: الطمأنينة إلى تقدير الله عزَّ وجلَّ إذا ساءت الأقدار، والثقة في توفيقه عند غياب مشاهد التوفيق، في الحديث قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلْيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ، وَلاَ يَقُولَنَّ: اللَّهُمَّ**

إِنْ شِئْتَ فَأَعْطِنِي، فَإِنَّهُ لاَ مُسْتَكْرِهَ لَهُ»[1]، قيل في معنى "العزم" أن يُحسِن الظن بالله في الإجابة، لذلك لا ينقطع مع حُسن الظن عمل، وفي الأثر عن الحسن البصري: "إن المؤمنَ إذا أحسن الظنَّ بربِّه؛ أحسن العمل"[2].

وأغلب الناس ينصرف ذهنه في الاعتقاد في الأسباب إلى معنى تعظيمها، ولا ينتبهون إلى أن استضعافها من تعظيمها على الحقيقة، فمن عبادة الأسباب أحيانًا تقالها واستضعافها، فيتركها الإنسان أو يغفل عنها بداعي ضعف تأثيرها، وهو لا يستضعفها إلا من اعتقاده النفع فيها، وهي لا تضر ولا تنفع لا في حال القوة ولا الضعف، والله عزَّ وجلَّ هكذا أوجدها ليختبر صدقه في الإيمان به لا الإيمان في الأسباب!

ولذلك الرجلان اللذان خافا الله وأنعمَ عليهما من بني إسرائيل قالا لقومهما: { **ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } [سورة المائدة: الآية ٢٣]، ولم يستغرب إبراهيم عليه السلام أمره تعالى بأن يُؤذن في الناس في الصحراء: { **وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ** } [سورة الحج: الآية ٢٧]، ويعقوب عليه السلام أمر بنيه أن يدخلوا مصر من طرق متفرقة، لا من طريق واحد خشية العين والحسد أو أن يُتوجس منهم خيفة فينالهم بسبب ذلك الأذى، لكنه استدرك على نفسه بقوله لهم: { **وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ**

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه (٦٣٣٨/ كتاب الدعوات)، ومسلم في صحيحه (٢٦٧٨/ كتاب الذكر والدعاء والتوبة)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مرجع سابق، ج ٢ ص ١٤٤.

مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ } [سورة يوسف: الآية ٦٧]، إذ الحذر لا يدفع من قدر الله شيئًا، فدلَّ ذلك على أن الأمر لا علاقة له بقوة الأسباب، إنما في تحقيق هذه المعادلة الصعبة؛ الاستجابة للأمر الشرعي في الأخذ بها مع عدم الاعتقاد فيها، لأن المؤمن مأمور بأن يراعي الأسباب المعتبرة في الوقت الذي يوقن فيه أنه لن يصل إليه إلا ما قدره الله تعالى.

لذلك، ليس معنى العجز عن الأسباب غير المقدور عليها؛ تعطيل الأسباب المقدور عليها، مثل الاستخفاف بـ "**الدعاء**" عند العجز عن الجهاد، فالدعاء من جُملة الأسباب المُقدَّرة، ومُيسِّر الأسباب واحد ومُسيِّرها واحد، الذي يُعطلها الله والذي يُجريها الله، قال ابن تيمية: "والدعاء من الأسباب التي يُنال بها هُداه ونصره ورزقه، فإذا قُدِّر للعبد خيرًا ينالُهُ بالدعاء؛ لم يحصُل له بدون الدعاء"[١]! فمن عجز عن بعض الأسباب المادية؛ لم يعجز عن الدعاء، وفي الأثر أن بعض السلف كان يستَنْصِر به على عدوِّه ويقول: "إذا أُلهمتُ الدعاء، فإن الإجابة معه".

لأن السر في سببية الدعاء؛ استخراج الافتقار من النفس، قال القُشيْريّ: "فائدة الدعاء إظهار الفاقة بيْنَ يديه، وإلا فالرب عزَّ وجلَّ يفعل ما يشاء"[٢]، فمن جملة الابتلاء الذي يُبتلى به المؤمن؛ الصبر على الدعاء، فالدعاء عبادة مقدور عليها دائمًا غايتها إظهار الافتقار لله عزَّ وجلَّ، فلا يُعذَر أحد بتركها، يقول الله عزَّ وجلَّ: { **وَإِذَا**

(١) أحمد بن عبد الحليم بن تيمية: مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ج ٨ ص ٧٠.

(٢) عبد الكريم بن هوازن القُشيْريّ: الرسالة القُشيْريّة، تحقيق: د. عبد الحليم محمود ود. محمود بن الشريف، دار المعارف (القاهرة)، ج ٢ ص ٤٢٦.

غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ } [سورة لقمان: الآية ٣٢] فنجاهم لأنهم صدقوا في الإقرار بعجزهم، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم؟!**»[١] لأنهم أكثر من يستَقْوون بالله!

بل من عجيب ما قرره بعض العارفين أن الله عزَّ وجلَّ قد يُؤخر إجابة الدعاء لامتحان الصبر على الدعاء، فيكون الابتلاء لا في الابتلاء الذي يدعو المؤمن لرفعه، بل في الصبر على الدعاء برفعه، يقول ابن الجوزي: "رأيتُ من البلاء أن المؤمن يدعو فلا يُجاب، فيُكرر الدعاء، وتطول المدة، ولا يرى أثرًا للإجابة، فينبغي له أن يعلم أن هذا من البلاء الذي يحتاج إلى الصبر، فإنه لو لم يكن في تأخير الإجابة إلا أن يبلوك المقدر في محاربة إبليس، لكفى في الحكمة، قد ثبت بالبرهان أن الله عزَّ وجلَّ مالك، وللمالك التصرف بالمنع والعطاء"[٢].

فنحن أمام عبادتين؛ الدعاء، والصبر على الدعاء، وهو من معاني قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ**»[٣]، حيث يتعلق المؤمن بالدعاء حتى يصير عبادة له على هيئة العادة، لا أن ييأس ويمل ويقول: "دعَوْتُ فلم يُستَجَب لي"، لأن غاية التأخير غَمْر النفس بالعبودية وغرس الثقة في الله في أعماق

---

(١) صحيح: سبق تخريجه.

(٢) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي: صيد الخاطر، تحقيق: حسن المساحي سويدان، دار القلم (دمشق)، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص ٨٢.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه (٦٣٤٠/ كتاب الدعوات)، ومسلم في صحيحه (٢٧٣٥/ كتاب الذكر والدعاء والتوبة)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

النفس، لذلك كان أوجب مواطن الدعاء وقت الفاقة، وقديمًا قيل: "خيرُ الدعاء ما هيَّجته الأحزان"، وكان القُشيْريّ يقول: "دعاءُ العارفين بالأحوال"[١]!

وقد قاتل النبي صلى الله عليه وسلم عدوه بالسيف وبالدعاء، ومنه دعاؤه على قريش لأذيتهم المسلمين، ولنلاحظ أن وجود المسلمين المستضعفين بين ظهراني قريش لم يَحُلْ دون الدعاء عليها، في الحديث الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع رأسه من الركعة الأخيرة في صلاة الصبح قال: «**اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ**»، أي في الفقر والقحط والجوع، ثم يستثني المستضعفين يقول: «**اللَّهُمَّ أَنْجِ عَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الوَلِيدَ بْنَ الوَلِيدِ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**»[٢].

لأن الأصل أن عقاب الله عزَّ وجلَّ للمُكذّبين في الدنيا والآخرة، ومن قال إن العقاب يكون في الآخرة فقد كذَّب صريح نص القرآن، قال تعالى: { **وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ** } [سورة الرعد: الآية ٣١]، أي قبل عذاب القيامة.

فالاستخفاف بالدعاء للمسلمين المستضعفين الذين لا يُقدر على نجدتهم بالنفس والمال، وازدراء من يلوذون به؛ كسر لإرادتهم

---

(١) عبد الكريم بن هوازن القُشيْريّ: الرسالة القُشيْريّة، مرجع سابق، ج ٢ ص ٤٢٦.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه (١٠٠٦/ كتاب الجمعة)، ومسلم في صحيحه (٦٧٥/ كتاب المساجد ومواضع الصلاة)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وتعجيز لهم عما يملكون بذله، ومن كُسرت إرادته فيما قُدِّر عليه اليوم؛ كُسرت إرادته فيما يُقدَّر عليه مما هو أكبر منه غدًا.

وكثيرون يذْهلون عن تدبير الله عزَّ وجلَّ لتعلُّقهم بتدبير البشر، فيغفلون عن تدبير الله في تدبير البشر، يُلهيهم الواقع عن أن الله عزَّ وجلَّ إذا أراد شيئًا هيّأ له أسبابه، وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، قدَره نافِذ في الأسباب والمُسبِّبات، وتدبير الناس لا يغلبُ تدبيره، وما غلب عُسرٌ يُسرَيْن، فإن وافقَت مُشاهدة قلبه مَشاهد الواقع؛ فنعمَ هي قراءة المؤمن، وإن لم توافقها فقد غلّبَ الإيمان وحُسن الظن بالله، قال تعالى: { **وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } [سورة آل عمران: الآية ١٣٩] أي: الأعلون حالًا بإيمانكم، الأعلون في العاقبة إذا بقيتم على إيمانكم، يقول ابن القيم: "للعبد من العُلُوِّ بحسب ما معه من الإيمان" (١).

ومن لمحات اللغويين البديعة في قوله: { **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } قالوا بأن { **إِنْ** } هنا وإن كانت صورتها صورة الشرطية لكن معناها التعليل، لأن صحة الإيمان تُوجِب قوة القلب والثقة بصنع الله وقلة المبالاة بأعدائه، وكان بعض العارفين يقول: "العبودية شهود الربوبية".

وإن الغفلة عن تدبير الله تنشأ من فساد الاعتقاد في معنى "**التدبير**" فينظرون لتدبير الله بالنظرة الضيقة التي ينظرون بها لتدبير البشر، يظنون أن تدبير الله لا يعني إلا الانتقام يهبط من السماء أو يخرج من الأرض، وتدبيره تعالى أوسع وأغنى وأمكر من ذلك،

---

(١) ابن قيم الجوزية: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، تحقيق: محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف (الرياض)، ج ٢ ص ١٨١.

لا تتفطَّن له خبرة ولا تُصيبه فِراسة، فتدبيره في الأسباب أعجب من تدبيره في النتائج، فهو المُدبِّر أمرًا وإذنًا ومشيئة، يُدبِّر الأسباب ويرعاها، ويجعل تحريكها بيدِ آخِر من يُتصور منه تحريكها، يخلق السبب ومن قبله قد خلق ما يرعى السبب، خلق فرعون ليرعى موسى قبل أن يخلق موسى، وخلق العزيز ليرعى يوسف قبل أن يخلق يوسف، وهيَّأ دار الهجرة للنبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يوحى إليه بالهجرة إليها، تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "كان يومُ بُعَاثَ[١] يومًا قَدَّمه الله لرسوله، قَدِمَ صلى الله عليه وسلم عليهم، وقد افترقَ مَلَؤُهُم وقُتلَت سَرَواتُهُم[٢]"[٣]، أي تشتتت جماعتهم، وقُتل أشرافهم، فتهيَّأ بذلك قبولهم الإسلام والإقبال عليه، ألم يكن مَن صدَّ قريشًا عن الإسلام وحال دون دعوة النبي صلى الله عليه وسلم هم أشرافُ قريش وكُبراؤها؟!

فالخلق كلهم مُدبَّرون تحت تدبيره عزَّ وجلَّ، وتدبيرهم مقهور بتدبيره، لذلك في قوله تعالى: { **أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ** } [سورة الزمر: الآية ٣٦]، ماذا قال بعدها مباشرةً؟

قال: { **وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ** }، كأنه يقول: إذا كُنتُ أُغنيكَ عن أن تحتاج إلى غيري؛ فكيف تخاف من غيري؟! فالمراد؛ يُخوِّفونكَ لكن الله كافيك، وفي الأثر: "إذا أراد الله إنفاذ قضائه

(١) حصن بالمدينة، وقعت فيه حرب عظيمة قُتل فيها خلق من أشراف الأوس والخزرج وكبرائهم، ولم يبقَ من شيوخهم إلا القليل.

(٢) جمع سري، وهو السيد الشريف.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه (٣٧٧٧/ كتاب مناقب الأنصار) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

وقدَره؛ سلب ذوي العقول عقولهم، حتى ينفذ فيهم قضاؤه وقدَره"!

وبعض الناس يتصور أن الأخذ بالأسباب يساوي وقوع النتائج، فيُعامل الأسباب بوصفها وصفة طبية (روشتة)، فإذا لم تقع؛ سَخِط وتذمَّر، أو نفر عن الأسباب والأخذ بها! فربما يتَعلق بالقوة؛ فإذا تأخر النصر سَخِط وشكَّ في القوة التي بين يديه، أو يتعلق بالسعي؛ فإذا مُنع العطاء تذمَّر وارتاب في السعي الذي أقبل عليه!

وهذا من نكد العيش، يظل حائرًا شكّاكًا لائمًا ملومًا، يلوم الخلق والمقادير، و"لومُ المقادير لومٌ لمُقدِّرها" كما يقول ابن القيم[1]، فهذا هو عينه الاعتقاد في الأسباب الذي حذَّر منه العلماء، بقاعدتهم المعروفة: "اتخاذ الأسباب، لا الاعتقاد فيها"، والذي خلقها هو الذي منح قواها لتؤثِّر، فإن شاء سلبها القوة فتعطلت، وإن شاء أجراها فأثَّرت!

فالعاقل من اعتمد بجوارحه على الأسباب، واعتمد في قلبه على خالقها، يأخذ بها ويتمسك، لكن لا يرجوها ولا يخافها، يجتهد فيها ويتيقّظ لها، لكن لا يطمئن إليها ولا يتوكل عليها، قال سُفيان بن عُيينة: "من لم يَصلُح على تقدير الله، لم يَصلُح على تقدير نفسِه"[2].

---

(١) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي (بيروت)، الطبعة الثالثة ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م، ج ٢ ص ٢١٦.

(٢) أبو بكر أحمد بن الحسن البيهقي: شُعب الإيمان، تحقيق: د. عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد (الرياض)، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م / ١٤٢٣هـ، ج ١ ص ٣٩١.

فالمؤمن يُعلِّق قلبه بالله عزَّ وجلَّ، فيأخذ بالأسباب ولو أيقن أنها لن تفيده شيئًا، لأنه يُدرك أنه تعالى مُسبِّب الأسباب وخالقها، ومن خلقها؛ كما يُميتها فتتعطل؛ يُحييها فتؤثِّر، لا إدراك معرفي علمي فحسب، بل إدراك عملي واقعي، بأن يرجوه تعالى ولا يرجوها، ويخشاه عزَّ وجلَّ ولا يخشاها، فيستوي عنده غياب الأسباب وحضورها، وتتساوى عنده أقدارها إن تعطلت أو أثَّرت، ولا تحمله على السخط والتقصير في حق الله تعالى، بل يشكر في كل حال، وتزيد طاعته كلما ضاقت به أحوال الدنيا وكلما غلبته ماديتها وكَدرها، لأن معية الله عزَّ وجلَّ حاضرة في نفسه دائمًا وأبدًا، والافتقار إليه تعالى حاضر في قلبه في كل حال.

فليس ثَمَّ تعارُض بين الاعتقاد في قدرة الله تعالى غير المتناهية وبين قانون الأسباب، فالذي سنَّ الأسباب وشرع الأخذ بها عزَّ وجلَّ؛ قادرٌ على خرق الأسباب عند تعارُضها مع عهوده الربانية، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ **يُدَبِّرُ الْأَمْرَ** ﴾ بعد قوله: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى** ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢]، فكأن معنى التدبير كما قال البقاعي: "تنزيلُ الأمور في مراتبها مع إحكامِ عواقبها"(١)، ليعمل المؤمن على ضعفه، ويأخذ بالأسباب وإنْ بدت غير مجدية، والله عزَّ وجلَّ ﴿ **يُدَبِّرُ الْأَمْرَ** ﴾ يُتمُّ الخير ويُحْكِم العواقب.

لذلك جاءت لفظة ﴿ **الْأَمْرَ** ﴾ مجردة عن الضمير، فلم يقل

---

(١) إبراهيم بن عمر البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مرجع سابق، ج ٩ ص ٦٩.

"أمركم" ولا "أمرك"، لتكون آنس للنفس وأملك للقلب، لأنه لا يدبِّر أمر المؤمن فقط، بل كذلك أمر عدوه، لذلك في مواضع أخرى استخدم زيادة "كُلّه" كما في قوله: { **قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ** } [سورة آل عمران: الآية ٥٤]، { **وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ** } [سورة هود: الآية ١٢٣]، حتى يستقر في القلب أن لا قُدرة ولا قوة ولا تصريف ولا صُنع ولا خطة إلا بقضائه وحكمته، إن شاء سلبها بعد منح، وإن شاء منحها بعد منع.

فالأخذ بالأسباب إنما هو استجابة لنداء الشرع ليس أكثر، فالأمر بالإعداد لا يُنافي الإقدام إذا وجب، ولا يُعارض طلب الحق ودفع الباطل إذا تعيَّن، نعم نُعِد ونكتسب أسباب القوة، لكن دون أن نرضى بالذُّلّ والمهانة، فالله عزَّ وجلَّ العزيز ويُحب أن يكون المؤمن عزيزًا، لأن النصر دائمًا وأبدًا من عند الله، لذلك كان النداء الرباني للنبي صلى الله عليه وسلم: { **فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ** } [سورة النساء: الآية ٨٤]، ولم يكتفِ بالأمر بالقتال، بل جعل التحريض عليه في ذاته عبادة يُتعبد بها الله عزَّ وجلَّ: { **وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ** }، ثم بيَّن لماذا!

فقال: { **عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا** } [سورة النساء: الآية ٨٤]، فبيَّن أن للذين كفروا بأسًا وأذًى، لكن الله تعالى يكُفه، لا ببذل النفس فحسب، بل بتحريض المؤمنين عليه كذلك، حتى لا يستقل أحد نفسه، فمن لم يملك النُّصرة بالنفس فعليه النُّصرة بالبيان والبلاغ، فمن أدى غاية ما مَلك، فقد أدى الواجب الذي يقدر عليه، ومن أدى الواجب فقد اهتدى، وما أدق قول ابن القيم في تفسير الآية: "لئلا يتوهم سامع أنه وإن لم

يُكلَّف بهم، فإنه يُهملهم ويتركهم"[١]، أي يُكلَّف بحملهم على بذل أنفسهم وإلا تركهم!

ولنتدبر هنا لفظة { الْمُؤْمِنِينَ }، ولم يقل "المسلمين"، فالعادة أن العدد يقوِّي النفس، لكنه تعالى أراد أن يُذكّرنا بأن الإيمان قوةً للنفس تدفع عنها وهم استشعار الضعف أمام بأس عدوها.

وهنا نأتي لنقطة أخرى مهمة، هي الاستضعاف والاستخفاف كأهم عوامل تأخر الغلبة.

(١) ابن قيم الجوزية: الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمُعطلة، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة (الرياض)، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، ج ١ ص ٣٩١.

لماذا لا يُمكَّن لنا؟:
الاستضعاف والاستخفاف

على الرغم من أن المستضعفين يقفون على طرف نقيض من المستكبرين، لكن في الحقيقة هما – في الغالب – نتاج خلل معياري واحد لموقع الذات الإنسانية ضمن محيطها الاجتماعي، فكما أن تضخم الشعور بالقيمة عند المستكبرين هو أكثر ما يحملهم على استضعاف واحتقار الخلق؛ كذلك تضخم الشعور بالضعف عند كثير من المستضعفين هو الذي يحملهم على تقبُّل الهوان؛ بتعاملهم مع من اعتقد فيهم ذلك، كما لو أنهم ضعفاء فعلًا لا يملكون سبيلا!

وتأمل قول الله تعالى: { **إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا** } [سورة النساء: الآية ٩٧][1]، حيث الأصل في جزاء من ادعى الاستضعاف أنه من جزاء المستكبرين، لأنه وضع نفسه في خانة المستضعفين والأجدر ألا يكون كذلك، ولأنه قَبِل الذُّلّ والهوان ورضي بالعجز والانكسار، والأهم أنه كان سببًا رئيسيًا في استكبار

(١) نزلت الآيات في شأن الذين لم يهاجروا مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، لكن حكمها يعم كل "استضعاف" يدخل في عمومها، وهو قول القرطبي وابن كثير وكثير من المفسرين، وفي الأثر عن سعيد بن جُبيْر رضي الله عنه: "إذا عُمل بالمعاصي في أرضٍ فاخرج منها، وتلا: { **أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا** }".

من استكبر بدلًا من مقاومته وقهره!

فكما أن الاستكبار تشبَّع بمشاعر وأحاسيس من الفردانية والإعجاب بالنفس والفوقية، كما قال إبليس لرب العِزة: { **أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ** } [سورة الأعراف: الآية ١٢]، وقال فرعون لموسى: { **أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ** } [سورة الزخرف: الآية ٥٢]؛ فكذلك الاستضعاف قد يكون تشبُّعًا بمشاعر مقابلة من الدونية والاستخفاف بالنفس وعدم تقديرها، فهذه المشاعر تساهم في انحراف المعايير، فالاستكبار والاستضعاف المتوهم كلاهما امتلاء نفسي أو شعوري بقيم خادعة.

بالطبع لا نتكلم هنا عن الاستضعاف الحقيقي، الذي حددته الآية الكريمة: { **إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا** } [سورة النساء: الآية ٩٨]، فهؤلاء معذرون لأنهم لا يستطيعون في نفسهم؛ { **لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً** } ولا بغيرهم؛ { **وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا** }، أما الذين توهموا الضعف فأعجزوا أنفسهم عن تفادي الذُّل، فهؤلاء لا يُعذرون بالخنوع والاستكانة، خاصةً إذا كان هذا الخنوع والاستكانة لكُفر، وهو سر قوله: { **مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا** }، وعدم الاكتفاء بقوله: { **إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ** }، كأن المعنى: هذا هو عجز الضعفاء الذي ينبغي أن يكون ليُعذروا به.

ولأن الضعف المتوهَّم يختلط بالضعف الذي يحصل به الإعذار، ويشتبه به، حتى على صاحب الشأن نفسه، لأن النفس تنفر بطبيعتها عن الإقدام؛ عقبت الآية بـ: { **فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا** } [سورة النساء: الآية ٩٩]، والتي تُفيد رجاء

المغفرة، فكأن الفعل لم يكن في دائرة الرخصة والإباحة، فإن العفو لا يلحق إلا بذنب، كما أن الآية لم تقطع بحصول العفو، والعلة من ذلك كما قال الطاهر بن عاشور: "والمقصود من ذلك تضييقُ تحقُّق عُذْرِهم، لئلا يتساهلوا في شروطه اعتمادًا على عفو الله، فإن عُذْرَ الله لهم باستضعافهم رخصةً وتوسعةً من الله تعالى"[1].

والسر في الموقف الصارم للإسلام من الاستضعاف هو أنه أول الخيانة، ولذلك يكثُر أن نجد الخائنين حين يوضعون في موقف مساءلة أمام أهل الحق أن يُبرروا خيانتهم بأنهم كانوا مستضعفين، لذلك نجد القرآن لا يقبل أي مبرِّر لهم ولا أي تبرير عنهم، يقول الله تعالى: { **وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا** } [سورة النساء: الآية ١٠٧]، فمبرر استضعافهم هو الذي جعلهم يستمرئون الخيانة، وهو معنى التكثير في قوله: { **خَوَّانًا أَثِيمًا** } إذ يندر أن تقع خيانتهم مرة واحدة، لذلك كانت الخيانة الخُلق الذميم الوحيد الذي صرَّح القرآن بألا يُتهاون فيه ويُدافع عن فاعله، وقد حملت الآية مع هذا التحذير؛ وعيدًا شديدًا للخائنين وبشارةً للمؤمنين، ففي قوله عزَّ وجلَّ: { **إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ** } أن الله عزَّ وجلَّ لا يُكرِم من أبغضه ولا يُعِزُّه أبدًا، ولذلك قال { **يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ** } فجعل خيانة الغير خيانة لأنفسهم، لأن كيد الخيانة يعود فيهم ويرتد عليهم.

وقرين الاستضعاف: "**الاستخفاف**"، حيث لا يُعبأ بالناس لأنهم بلا قيمة ولا جدوى، غير أن الاستخفاف يجد مرتكزه في أمرين:

---

(١) محمد الطاهر بن عاشور: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد (التحرير والتنوير)، الدار التونسية للنشر (تونس)، ١٩٨٤م، ج ٥ ص ١٧٧.

وعي وفعل، فحيث يُعاد تشكيل الوعي وتفريغه واستبداله بوعي آخر صوري ومتوهَّم؛ تتغير القيم وتنحرف بوصلة الفعل، فتصير التبعية والفردانية والاستهلاك والترف والفسق؛ محركات النفس وبواعثها، كما قال تعالى: { **فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ** } [سورة الزخرف: الآية ٥٤]، فتتعطل الطاقات وتضمر القوى، الحالة التي عبَّر عنها علي شريعتي بـ"الاستحمار" في كتابه (النباهة والاستحمار)، وسمَّاها مالك بن نبي "القابلية للاستعمار"!

إن من أهم أسباب انحطاط الشرق العربي "الاستخفاف"، وإذا كان سببه الرئيسي هو تعصُّبَ الحُكام وخيانتَهم لأمانة الحُكم؛ فإن من أهم أسبابه أيضًا ضعف نفوسِ المحكومين، وخيانة العلماء وطلبة العلم للدعوة، وشيوع التفاهة وسوء الأدبِ في المُعلمين، وخراب دور العدالة. ويكون قدر الاستخفاف وعظم فُحشه بقدر مساهمة هذه العوامل واجتماعها، فإذا ما اجتمعت وتمكنت؛ عمَّت الفوضى، وفشى الشره، وضاعت الأمانة، وعلا صوت الباطل، وتدهورت المعارف، وانحطت همم الناس، واستولى عليهم الفقر والغلاء، وصار أمرهم بين يدي العَجَزة القَعَدة والخَوَنة المَرَقة؛ فساءت سيرتُهم وفسدت سريرتُهم، فلا أستار تعُفُّهم ولا دماء تكُفُّهم، حتى يصير حال من في القبور أفضل من حالهم.

وسر الاستخفاف والاستضعاف المتوهَّم: "**السلبية**"، حيث الإنسان كمًّا مُهملًا، تتضاءل فاعليته فيتضاءل اعتباره، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا**»، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «**بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ**

صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ»[١].

فالإسلام لا يحمد "**السلبية**" أبدًا، ولا أي نشاط يمُتُ لها بصلة، إن ساغ أن نُسمّيه نشاطًا، مثل "الفُرجة" التي هي نظر بلا هدف ورؤية بلا غاية، وكذلك "الاستعراض" الذي هو إظهار بلا معنى، وكلاهما ناجم عن الهوس بالصورة واستيلائها على القلب، وهي واحدة من أبرز أسباب تخلي المسلمين في عصر الحداثة عن أدوارهم وعن فاعليتهم، حتى في أشدّ أزماتهم، حيث أقاموا التفاعل مع الصور مقام التفاعل مع الواقع.

وهذا التنافر بين الإسلام والسلبية سببه أن الإسلام يقوم على الوعي بالذات والهوية والغاية من خلق الإنسان، ومثل منظومة هكذا لا بُد أن ترفض الانصياع على عمًى، والاستسلام للضلال، وعدم المبالاة بالباطل، لذلك في الحديث الصحيح قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ**»، فقال الصحابة: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «**فَمَنْ!**»[٢]، أي فمَن غيرهم؟! فهذا مثال ضربه النبي صلى الله عليه وسلم للموافقة على عَمًى وعدم مبالاة، فحتى لو صار المتبوع إلى جُحْرٍ واضح ضيقُه وقذارته وضوح الشمس؛ صرتم إليه! كأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: أين عقولكم يومئذٍ؟! فمصلحة

---

(١) حسن: أخرجه أبو داود في سننه (٤٢٩٧/ كتاب الملاحم)، وأحمد في مسنده (٣٧/ ٨٢)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ١٨٢)، وغيرهم من حديث ثوبان رضي الله عنه، وتمام الحديث: فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: «**حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**».

(٢) صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه (٣٤٥٦/ كتاب أحاديث الأنبياء)، ومسلم في صحيحه (٢٦٦٩/ كتاب العلم)، من حديث أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه.

طلب الضَبِّ أو منفعة تتبُّعه غير معتبرة أصلًا، فوجه الغرابة في التشبيه ليس من طلب الضَبِّ، إنما في اقتحام "جُحره" وهو لا يليق بعاقل! والمراد تقبيح أعمالهم وأنها موجبة للصدام مع العقل والفطرة، فاتباعهم ليس المقصود منه عين التقليد فحسب، بل كذلك مجرد التطبيع مع أخلاقهم حتى يستهين المؤمن بـ"نتانتها" ويذهب من نفسه داعي إنكارها واتخاذ موقف منها!

بل يذهب الإسلام تجاه السلبية أبعد من ذلك، فيستنكر أن يكون المسلم "إمَّعة" لا عَزم له ولا إرادة، فقد ورد في بعض الأحاديث أن المسلم لا ينبغي أن يكون كذلك؛ إن أحسنَ الناسُ أحسن وإن أساءوا أساء، إن ضلَّ الناس ضلَّ وإن اهتدَوا اهتدى، وفي الأثر عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في معنى "الإمعة": "يجري مع كل ريح"[1]، فحتى الهداية لا ينبغي أن ترتهن بالناس، بل الأصوب أن تنبع من النفس وأن تكون عن إرادة، والمؤمن يُوطِّن نفسه على الصلاح في كل حال، فلا أسوةَ في الضلال والشر، لأن أسباب الضلال أسباب عذاب يوم القيامة، لذلك في قول الله تعالى: { **إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ** } [سورة البقرة: الآية ١٦٦]، حين أراد الألوسي أن يُعرِّف معنى { **الْأَسْبَابُ** } قال بتعبير رائق: "الوُصَلُ التي كانت بين الأتباع والمتبوعين في الدنيا"[2]، يقصد من المَحاب والاتفاق والعهود

(١) أبو بكر الخرائطي: مساوئ الأخلاق ومذمومها، تحقيق: مصطفى بن أبي النصر الشلبي، مكتبة السوادي (جدة)، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م، ص ١٤١.

(٢) محمود بن عبد الله الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية (بيروت)، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، ج ١ ص ٤٣٤.

والأواصر، لذلك لم تقل الآية "قطعت"، بل استخدمت صيغة تَفعل "تَقَطع"، في إيحاءٍ إلى تكرار الانقطاع بينهم على زمن في النار، أي مرةً بعد مرة، زيادة في عذابهم وإيلامهم وإهانتهم أمام الملأ يوم القيامة، إذ تعددت أسباب الضلال الذي جمعهم، فكان الجزاء من جنس العمل، وفي الأثر: "خالطوا الناس وزايلوهم"، أي خالطوهم ولا تتأثروا بهم في القول والعمل الذي يضر أو لا ينفع.

فلا عجب أن نجد النبي صلى الله عليه وسلم يُكثر الاستعاذة من العجز والكسل والبُخل والجُبن، لما فيها من سلبية وإحجام، فبالعجز يُحجم عن الفعل، وبالكسل يُحجم عن الحركة، وبالبُخل يُحجم عن الإنفاق، وبالجُبن يُحجم عن الإقدام، يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: كنت أخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما نزل، فكنتُ أسمعُه يُكْثِرُ أن يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ وَالحَزَنِ، وَالعَجْزِ وَالكَسَلِ وَالبُخْلِ وَالجُبْنِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ**»[1]، فكل هذه المفردات؛ إما تتضمن موقفًا سلبيًّا، مثل: العجز والكسل والبُخل والجُبن، أو تُحمل على موقف سلبي وتؤدي إليه، مثل: الهَمّ والحَزَن وضَلَع الدَّين وغَلَبة الرجال.

بل يذم النبي صلى الله عليه وسلم أمورًا شرعية إذا أدت إلى السلبية، وفي الحديث: «**إِنَّ الْوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ**»[2]، لأنه يمنع الأب

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه (٢٨٩٣/ كتاب الجهاد والسِّيَر) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) صحيح بمجموع طرقه: أخرجه ابن ماجه في سننه (٣٦٦٦/ كتاب الأدب)، وأحمد في مسنده (٢٩/ ١٠٤، ٣٦/ ١٦١)، والحاكم في المستدرك (٣/ ١٧٩، ٤/ ٢٦٦)، والطبراني في المعجم الكبير (١/ ٢٣٦)، وغيرهم من حديث الأشْعث بن قيس ويَعْلى بن مُنَبِّه الثقفي رضي الله عنهما، وله روايات أخرى ببعض الزيادات لكنها

عن الإنفاق في الطاعة خوفَ الفقر، ويؤخره عن الجهاد وكلمة الحق خوفَ ضياع الولد والفقد، وهو من معاني قول الله تعالى: { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ** } [سورة التغابن: الآية ١٤]، قال ابن عطية: "تشغل المرء عن مراشده وتحمله من الرغبة في الدنيا على ما لا يُحمد في آخرته"[١].

وكثير من الناس يُسيئون إلى معانٍ دينية جليلة، فيُنزلونها منزلة لا تليق بها، وفي مقدمتها "**الصبر**"، فبينما هو فضيلة لطالما أوصَى بها الأنبياء والحكماء، إلا أن العامة جعلوا منه مرادفًا للسلبية والخضوع والذلة والاستكانة والانكسار؛ فقعود المظلوم عن دفع الظلم "بما استطاع" من قوة وعمل؛ ليس من الصبر، بل هو تخاذلٌ ودَعَةٌ، لأن واجب المظلوم أن يسلك ما تيسَّر له من سُبل لاسترداد حقه طالما أمكنه ذلك ولم يعتدِ على حقوق الآخرين. لكن من ويلات الاستضعاف وآثاره أن السنوات الطويلة التي تمر على الراضين بالاستضعاف، يتعرَّضون خلالها للظلم والبطش والفرعنة؛ تدفعهم إلى الانتقال من التصريح إلى التلميح؛ لتحقيق نوع من السلوك الاجتماعي المتلائم والمُتكيف مع حكم قهري، فكأن من السهولة بمكان إيجاد مُبرِّر للاستكانة والذلة والانكسار كمنطق للمواجهة، بدلًا من المغامرة والمقاومة واستقلال الإرادة، فقالوا: "الصبرُ مفتاحُ الفرج"، لا يقصدون به الحكمة الدينية بقدر ما يعنون به "دعها تمر"! لأنهم لو صدقوا في الصبر لصدقوا في العمل!

ضعيفة جدًّا، والحديث يصح بمجموع طرقه.

(١) عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية (بيروت)، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، ج ٥ ص ٣٢٠.

فسَرَت هذه الحكمة الاجتماعية في العامة كالنار في الهشيم، وانتقلت من جيلٍ إلى جيل، ومن سخرية الواقع أن هذا الواقع المرير دفعَ الناس إلى شيءٍ من الاستعلاء على الحياة وأحداثها من خلال نزعتين: صوفية وفُكاهية - كما يقول د. محمد رجب النجار في كتابه (جُحا العربي) - لتبرير الوقوف من القضايا المصيرية موقف "المُتفرِّج" الذي لا يعنيه الأمر، بعبارة النجار: "لقد حوَّل المأساة إلى ملهاة بطريق الفكاهة"، فملاذُه "النُّكتة" و "الكوميك" يُرَوِّح بها عن نفسه إذا غلبته محنةُ القهر، فإذا ما بلغت به المحنة؛ الحرج لجأ إلى الصبر المُبالغ فيه وجنح إلى النُّسُك والدروشة!

لذلك، في أزمنة الضعف، كالذي نحن فيه؛ من البرِّ وحُسن الإيمان أن يتبين المؤمن الخط الفاصل بين «**لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ**»[1]، وبين شرعنة الاستكانة وتبرير الترك، فالذي قال: «**لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ**» هو الذي قال: «**خذِّل عنَّا ما استطعت**»[2] صلى الله عليه وسلم، فالإيمان تخذيل لا خُذلان، وإعانة لا إعراض، فلولا الأنصار ما كانت الهجرة، ولولا المدينة ما كان فتح مكة.

المسلم إذا لم يستطع استنقاذ نفسه من الذُّلّ ونجدة إخوانه منه؛ لم يُبرره، فالمسلم لا يتخلى ولا يُبرر التخلي، لا يتخاذل ولا يُبرر التخاذل.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه (٣٦٤١/ كتاب المناقب)، ومسلم في صحيحه (١٠٣٧/ كتاب الإمارة)، من حديث معاوية رضي الله عنه.

(٢) رواه الطبري في تاريخه (٢/ ٥٧٨)، وابن هشام في السيرة (٢/ ٢٢٩)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٤/ ٢٧٨)، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٤٤٦) وغيرهم بأسانيد منقطعة عن محمد بن إسحاق وعبد الله بن عاصم الأشجعي، غير أن أهل السِّير والتاريخ يقبلونه في أخبار السيرة لتساهلهم فيها.

ولذلك لا نكون مبالغين إذا قلنا إن أهم ما قدَّمه الجهاد الفلسطيني للأُمة، أنه أعاد تشكيل وعيها بقضاياها الأساسية وشرائع دينها؛ الجهاد، والشهادة، والثبات، ومُصابرة الضعف، والأخوة، والعِزة، والنصر، وفَهْم كتابَ الله عزَّ وجلَّ وعهوده الربانية، وإعادة ترتيب أولوياتها، وإعادة النظر في قدواتها وقدراتها، وقبل كل ذلك؛ كيف أن الدين هو الميزان الذي ينصلح به حال البشر ويحفظ الله عزَّ وجلَّ به الأرض.

فالدين يُحرر الناس ويُطلق إمكانياتهم ويستخرج أرقى ما فيهم، وتأمَّل كيف أن المادية والليبرالية حين حيَّدت الدين عن الحياة؛ أضعفت الناس وكبَّلتهم وأفسدت روحهم!

فلماذا نستغرب من انبهار كثير من الغربيين من الثبات الفلسطيني أو الأفغاني، وتَعطُّشهم لاستكشاف المسلمين! هذا أقل ما يمكن أن يُحدِثه الإسلام في الناس حين يستأصل فردانيتهم، ويُحررهم من سطوة "المادة"، وينتزعهم من وحل "التفاهة"، فهذه البِنية العبقرية؛ بِنية "الجهاد"، تُحفِّز؛ لا قوةَ المجتمع فحسب، بل الأهم إبداعاته في القوة، وطاقاته في الشعور، فلا تَحُدّ قُدرة الناس ولا تُقزِّم إحساسهم بالعِزة!

فالمسلم ليس مستخلَفًا في الحاكمية فقط، أو المال فحسب؛ بل أيضًا في الصفات، فالعِزة من صفات الله عزَّ وجلَّ؛ حضَّ عباده المؤمنين على التخلق بها، فصارت مكونًا أساسيًا في شخصية المؤمن.

فالإسلام يجعل المسلم مستصحبًا لشعور "العِزّة" دائمًا، مهما كان حاله من ضعف وهوان، فلا يصح في ظله أن يشعر بخِزي أو

دونية ما كالتي يشعر بها "النزَّاع للقومية" إذا أساءت بلده! ولاحظ كيف أن القرآن لما أراد أن يرد على غير المؤمنين اعتزازهم ببعضهم، قال: { فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا } [سورة النساء: الآية ١٣٩]، أي مصدر العِزّة: الله، وبإعِزازه من أراد: صار عزيزًا، فمن تعزّز بالله محالٌ أن يلحقهُ ذُلّ، لذلك قال للنبي صلى الله عليه وسلم: { فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ } [سورة الأنفال: الآية ٦٢]، وفي الأثر أن رجلًا قال يومًا للحسن بن عليّ رضي الله عنه: إن الناسَ يزعُمون أن فيك تيهًا! فقال: "ليس بتيهٍ، ولكنها عزّة الإسلام، فإنه العزّ الذي لا ذُلّ معه"، وكان ابن تيمية في تفسير قوله تعالى: { وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ } [سورة المنافقون: الآية ٨] يقول: "ذلك يقتضي أن من كان أعزَّ؛ كان أعظمَ إيمانًا"[١]، لذلك كان للعِزة "سكينة"، مثل سكينة الإيمان، تشرح الصدر وتُثبّت المؤمن وتُطمئنه وتقويه وترتقي بنفسه وتهوّن عليه، ومع كل ذلك يُثاب على استشعارها! كل معاني الإيمان في العِزة، وكل عِزة - مع القوة أو الضعف، النعماء أو البلاء - فيها معاني الإيمان، ومن لم يستشعرها إذا تكلّفها؛ وجدها!

ومن لوازم العِزةِ؛ القوةُ، فالعِزة من جنس القوة والقُدرة، لذلك هي رحمة بالمؤمنين غلظة على الظالمين، وهو وجه مفارقتها للكِبر، فإن منشأ الكِبر من جهل الإنسان بنفسه وضده التواضع لأنه ناشئٌ عن علمه بحقيقته وحقيقة من يعبد، ومنشأ العِزة من معرفة المؤمن لربه، فضده الذُلّ لأنه ناشئٌ عن جهله بحقيقة من يعبد.

---

(١) أحمد بن عبد الحليم بن تيمية: منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ج ٢ ص ٤٥.

والقوة في حقيقتها اتباع؛ اتباع على أسباب القوة التي خلقها الله عزَّ وجلَّ خاصةً "الإعداد"، واتباع في الاقتداء، أي بالنبي صلى الله عليه وسلم والأنبياء والصالحين، في تسنُّنهم بالشرع وفي جلَدهم وتصبُّرهم، فالأخذ بنهج النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه "قوة".

فأحد انعكاسات العبودية لله تعالى وأسرارها الجليلة؛ ألا ينحني المؤمن لعدو جبَّار أو طاغية ظالم، وألا تكسره مشاعر الضعف أو الظلم، ولا يغتم لتقلُّب الزمن وييأس على خُذلان، إذا كان الله عزَّ وجلَّ أمر المؤمنين ألا يضعفوا ولا يحزَنوا { **وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا** } لِما أصابهم يوم أُحد، وهو ما هو! وقَرنَ ذلك بكونهم الأعلَيْن { **وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ** } إذا تمسكوا بإيمانهم ووثقوا فيه { **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } [سورة آل عمران: الآية ١٣٩]؛ فكيف بما هو دونها من وقائع مهما كان حِمْلها على النفس وأثرها في القلب؟!

وسر اختيار الآية للوَهَن والحزن؛ أن الوَهَن مصدر الكآبة والانكسار، والحزن مصدر الاستسلام واعتقاد الخيبة، وهذا مقتضى الإيمان بأن الله تعالى "الجبار"، إذ لا يستعصي عليه ضُر، يجبر كسر القلوب ومصاب النفوس، يُغني الفقير، ويقوِّي العاجز، ويُثبِّت الخائف، ويُعزُّ الذليل، وينصر المظلوم، ويلزم من كل ذلك في حقه الضد؛ فلا يُعجزه عدو جبَّار، ولا يستعصي عليه طاغية معاند، إذ له تمام القُدرة وتمام العِزة وتمام المُلك والسلطان.

ومنه يُفهم وجه ارتباط اسمه "الجبار" باسمه "العزيز"، فإن القوة الحقيقية من الإيمان به، والعِزة الفعلية من طاعته والامتثال لأمره، إذ هو مُطلق في القوة، ممتنع عن الغلبة، لا قدر يُنافس قدره في الكبرياء والسمو، ولا شيء يُعادله ولا مثل له ولا نظير، فكل

ما سواه مُفتقِر إليه، وهو مُستغنٍ عن كل ما سواه، فكماله مُطلق، ونقصان ما سواه مُطلق، ومنه يُعلم السر فيما حققه جيل الصحابة من النصر والتمكين، وهم أقل عددًا وأضعف عُدة، فإن عزتهم كانت من عزته، ومنعتهم كانت من منعته، إذ توكلوا عليه، وفوضوا الحُكم إليه، ولم يَذلوا أنفسهم إلا على أعتاب بابه وحده.

وهذا المعنى نفهم به علاقة دقيقة في غاية الأهمية، وهي علاقة العِزة بالتوحيد الذي هو جوهر الإسلام وأساس العبودية، فالتوحيد شهادةٌ لها انعكاسات في النفس وانبعاثات إيمانية عن معرفة بالله عزَّ وجلَّ في ذاته وفي أسمائه وصفاته، والاستضعاف والاستخفاف يتنافران مع هذه المعرفة، فلا يليقان بعبودية قوامها التوحيد.

فالعبودية هي التسليم الكامل لله وحده، هي علاقة بين العبد وربه تقوم على الحب والطاعة والإخلاص، فترفع من شأن الإنسان، إذ تجعله متصلًا بالله تعالى الذي هو مصدر الكمال والعِزة، وتحرره من عبودية المخلوقات أو الأهواء، والاستضعاف والاستخفاف؛ إخضاع واحتقار، وهذا تأباه العبودية ويأباه التوحيد، لأن الإخضاع والاحتقار يهدمان الكرامة التي منحها الله لبني آدم، ويُشرعنان الظلم والإساءة التي حرَّمها تعالى بينهم، فلا عجب أن تكون قصة نبي الله موسى عليه السلام أكثر قصص الأنبياء ورودًا في القرآن، وهي في جوهرها تُلخِّص كيف يواجه التوحيد والعبودية؛ الاستضعاف والاستخفاف!

ولا عجب أن يُخرج الاستضعاف والاستخفاف الأُمة إلى موقع مغاير تمامًا لموقعها الذي كانت عليه، وكان ينبغي أن تظل عليه، أخرجاها إلى موقع هجين اختلطت فيه القيم، لا يمت لإرثها

وجذورها التاريخية المتصلة بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام رضي الله عنهم، فهذا الموقع ليس مجرد ماضٍ تاريخي نحِنُّ إليه، أو "نوستالجيا" نستعذب فيها ذكريات نتلهَّف لها؛ بل حالة واجبة شرعًا أو أخلاقًا، فبقاء الأُمة في موقعها الأصلي هو التزام ديني وحضاري.

وهذا يطرح السؤال الشائك: كيف يُمكن استعادة الموقع الذي كانت فيه الأُمة في عالم مختلف صار غالبًا؟

مركزيات الولاء:
ثُلاثية الشعور والاعتقاد والاصطفاف

بعض الناس يعتقد أن الابتلاء حين ينزل ببعض المسلمين يكون محصورًا فيهم، وهذا خطأ؛ بل هو ابتلاء يعُمُّ جميع المؤمنين، الذين نزل بهم المُصاب ومَن لم ينزل بهم، وامتحان مَن لم ينزل بهم المصاب ربما فاق امتحان من نزلت بهم المصيبة؛ في الثبات فيه والصبر عليه، فليس المستضعفون من المسلمين في فلسطين أو السودان هم وحدهم المبتلين، بل كل مؤمن مُبتلًى، مُبتلًى في عقيدته ابتداءً، ثم في شعوره نحوهم، ثم في اصطفافه معهم.

ولننظر كيف أن أحد أوصاف أهل الضلال في القرآن؛ { **الْغَافِلُونَ** } ومنه أشبهوا البهائم، في قول الله تعالى: { **أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** } [سورة الأعراف: الآية ١٧٩]، لأن النفس الغافلة تَضلّ وتُكسر وتُهان وتُساق وتُذلّ، وهي لا تدري لأي شيء هانت وفي أي شيء ضلّت، قال الطاهر بن عاشور: "الغفلةُ عدم الشعورِ بما يحِقُّ الشعورُ به"[١].

فاليقظة أجلُّ عطايا الإيمان، على قدْر تفاوت الناس فيها يكون إيمانهم ويكون ولاؤهم ويكون براؤهم وتكون مصائرهم ويكون حسابهم، إذا لم تُعلِّم ولدَك إلا خصلة واحدة فعلِّمه "اليقظة"، فأدنى الشعور من اليقظة، وأول العمل اليقظة، فلا غَرو أن جعلها الهروي

(١) محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٩ ص ١٨٥.

أول منازل السائرين، وقال في تفسير قوله تعالى: { **قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ** } [سورة سبأ: الآية ٤٦]: "القومة لله هي اليقظة من سُنة الغفلة"[١]، قال ابن الجوزي: "ومن رُزق يقظةً دلَّته يقظتُه"[٢].

فالحواس أدوات للإدراك، لذلك تذهب قيمتها إذا أدت بالإنسان للغفلة، لذلك يقول الله عزَّ وجلَّ: { **مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا** } [سورة النساء: الآية ٤٧]، فهذه الآية تفهم منها ماذا يحدث للناس حين يحجب الضلال حواسهم، وكيف ينتهي الحال بالإنسان لتبرير الباطل! فالطمس هنا وإن كان معناه الحرفي محو معالم الوجه ليصير هو والقفا سواء، وهو من جزاءات الآخرة، لكن المراد كذلك أن الله تعالى يكُبُها في الخذلان في الدنيا حتى يجعل ما يعلوها من الصَغار طاغيًا على هيئتها في الخِلقة، فالبصر ذهب بذهاب الاعتبار، والسمع ذهب بالإعراض عن الهدى، والنطق ذهب بكتم الحق، فلم يبق في الوجه إلا عبوس صفحته وسماكة جلده، لذلك يأتون يوم القيامة بوجوه تُشبه القفا في الهيئة جزاءً من جنس ما عملوا، لأن الوجه كان مجمع حواسهم!

فهذه الوجوه الكالحة سميكة الجلد عديمة الحواس؛ كيف تفقه قضية نبيلة مثل الولاء للمؤمنين في فلسطين أو السودان مثلًا إذ لم تؤثر فيها صور القتل والحرق وأصوات الدمار والخراب وصيحات المظلومين والمُعذّبين؟!

---

(١) محمد بن أبي بكر قيم الجوزية: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، مرجع سابق، ج ١ ص ١٦١.

(٢) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي: صيد الخاطر، مرجع سابق، ص ١٩٣.

فأول العمل للمؤمنين: انفعال الحواس لآلامهم، وهو مقتضى قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكِي عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»[1]، فالتداعي: سريان، كأنهم نادَوا على بعضهم وتسابقوا بينهم على شيء، والسهر متعلق بقلق النفس، والحُمى متعلقة بألم الجسد، فتوافقت نفوسهم في الشعور كما توافقت أجسادهم في المصاب.

لذلك نجد العلماء يستدلون على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقول الله تعالى: { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ** } [سورة المائدة: الآية ١٠٥]، بل اعتبروه أوجب ما في القرآن على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ أراد بقوله: { **عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ** }: المؤمنين مثلكم، لأنهم من أنفسكم أو كأنفسكم! وهذا شائع في القرآن، نحوه: { **فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ** } [سورة النور: الآية ٦١]، { **وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ** } [سورة الحجرات: الآية ١١]، { **لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا** } [سورة النور: الآية ١٢]، أي إخوانكم الذين هم كأنفسكم، قال الفخر الرازي: "جعل المؤمنين كالنفس الواحدة فيما يجري عليها، فإذا جرى على أحدهم مكروهٌ فكأنه جرى على جميعهم"[2].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه (٦٠١١/ كتاب الأدب)، ومسلم في صحيحه (٢٥٨٦/ كتاب البر والصلة والآداب)، من حديث النُّعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) محمد بن عمر بن الحسن الرازي: مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، دار إحياء التراث العربي (بيروت)، الطبعة الثالثة ١٤٢٠هـ، ج ٢٣ ص ٣٤١.

فهذا كله لترسيخ معنى أن المسلم للمسلم نعمة وعافية وبركة، لا نقمة وبلاء ونكبة، فهل تريد نفسٌ لنفسها إلا السلامة والخير؟!

لذلك في قوله تعالى: { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** } [سورة المائدة: الآية ٥٤]، أي غايةِ الرحمة والشفقة؛ لم يجعل الله عزَّ وجلَّ سبب المحبة كثرة صلاة وكثرة صيام، بل جعل علاقة المؤمنين ببعضهم هي السبب، فلا عجب أن يكون الاجتماع والأُلفة من ضروريات العبادة المحضة، وأن فكرة "**الجماعة**" في التعبد إحدى أفكار الدين المركزية، وهذا من كمال رحمة الله عزَّ وجلَّ بالمؤمنين، لأن النفس ضعيفة هشة وهنة، والدنيا ثقيلة قاسية أشدّ من أن يسير الإنسان فيها وحده ويعبُرها بمفرده، ومنه كانت الأخوة والصُّحبة جزءًا من الروح، بل روحٌ فوق الروح.

ولنتأمل كيف أن النداء للمسلم في غالب القرآن بـ { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** }، أو ينتهي بـ { **الْمُؤْمِنُونَ** }، { **الْمُؤْمِنِينَ** }، لماذا؟

للتأكيد على فكرة اصطفاف المؤمنين وأهميته في تحقيق عبودية الأفراد، ويكأن تحقُّق العبودية والطاعة وكمال دين الفرد؛ مرتكزه الجماعة المؤمنة!

فإعانة المسلمين المستضعفين ونُصرتهم، وبذل النفس والمال والقلب لهم ما استطعنا؛ ليس واجب مواساة أو صدى شفقة بمظلوم، إنما بالأساس "**عبادة**" نؤديها لله عزَّ وجلَّ، قال تعالى: { **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** }، وجعل هذا الولاء موجبًا للرحمة، كما قال في نهاية الآية نفسها: { **أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** } [سورة التوبة: الآية ٧١]، وفي صحيح مسلم:

«**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ**»[١]، فلا يكون هو سببًا في ظلمه ولا يتخلى عنه ويترك نصرته إذا ظُلم!

فهذا تكليف مرتكزه الإيمان والولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، واستحضار معاني التحرر والمظلومية ونحو ذلك، مهما كان جدواه ومهما بلغ أهميته؛ لا يوازي حضور المعنى الديني التعبدي.

وهذا المعنى التعبدي في التناصر، يصل بتأثيره لشعارات المعركة بين المؤمنين وعدوهم، والبعض يستهجن ذلك، يُريد إبعاد الدين عن الميدان، والعجيب أن العدو نفسه يُدرك أنه لا يمكن إبعاد الدين عنه، ألم يشتقَّ الكيان المحتل لأرضنا في فلسطين شعارات توراتية لعملياته العسكرية، مرةً في غزة باسم "مركبات جدعون"، ومرةً في السودان باسم "عملية موسى" لإجلاء اليهود الإثيوبيين خلال الحرب الأهلية عام ١٩٨٤م؟! ألم تشتقَّ أمريكا هي الأخرى شعارًا نصرانيًا باسم "الصليبي الدائم" في حربها ضد أفغانستان في ٢٠٠١م قبل أن تتدارك الأمر وتُغيره لعملية الحرية الدائمة؟! ألم يستخدم الصرب في حرب البوسنة شارات وأوسمة تحمل رموزًا أرثوذكسية ويضعوا الصليب الأرثوذكسي الصربي على المعدات والزي العسكري؟!

لقد فعلوا ذلك لأنهم يعرفون أن منطق القوة وحده لا يكفي لحسم المعارك، فلا بُدَّ معه من منطق الإيمان، لكنهم ليسوا بمؤمنين.

فنحن أولى بالإيمان، فإن الفئة المؤمنة غالبة وظاهرة وقادرة وقاهرة.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٦٤/ كتاب البر والصلة والآداب) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لذلك كانت "الله أكبر" شعار المسلمين في انتصاراتهم وفي أعيادهم، ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «**إِنَّكُمْ تَلْقَوْنَ عَدُوَّكُمْ غَدًا، فَلْيَكُنْ شِعَارُكُمْ: حم لَا يُنصَرونَ**»[١]، قال الخطابي: "هي إخبار، كأنه يقول: والله إنهم لا يُنصرون"[٢]، فكأنها تبشيرٌ بتمكين المسلمين.

إن هذه المعاني النبيلة المختلطة بالأسى التي عشناها في مِحن أفغانستان والبوسنة والعراق وفلسطين، محنة بعد محنة، وعِزة بعد عِزة؛ سببها نعمة "الإسلام"، وشرف الانتماء إلى "أُمة الإسلام"، فمهما شرحنا للناس قيمة نعمة الإسلام، ومهما عَرَّفنا لهم ما الانتماء إلى أُمة الإسلام؛ لن يستوعبوا تأثيرها في النفس كما استوعبوها يوم انتفاضة الأقصى (٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠)، أو ليلة سقوط بغداد (٩ أبريل ٢٠٠٣)، أو يوم انسحاب كابول (١٥ أغسطس ٢٠٢١)، أو صبيحة طوفان الأقصى (٧ أكتوبر ٢٠٢٣)، وكل يوم بذلنا فيه مشاعر الانتماء.

فهذا الحزن الذي يُمزِّق المسلم على أخيه في محنته ربما كان أرضى ما فيه لله عزَّ وجلَّ، ولنتدبر قول الله تعالى في صفة أهل النار: { **فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ** } [سورة الشعراء: الآيتان ١٠٠:

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في سننه (٢٥٩٧/ كتاب الجهاد)، والترمذي في سننه (١٦٨٢/ أبواب فضائل الجهاد)، وأحمد في مسنده (٢٧/ ١٦٢)، وعبد الرزاق في مصنَّفه (٥/ ٢٣٢)، وغيرهم من حديث رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وإيهام اسمه لا يضر فكل الصحابة عدول، وللحديث رواية أخرى عن البَراء بن عازب رضي الله عنهما لكن حديث الصحابي المُبهم أصح.

(٢) حمد بن محمد الخطابي البستي: معالم السنن (شرح سنن أبي داود)، المطبعة العلمية (حلب)، الطبعة الأولى ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م، ج ٢ ص ٢٥٨.

١٠١] فكان من عقابهم حرمانهم من الإخوان والخِلَّان، وهو من جنس عملهم، إذ كان من صفتهم في الدنيا أن بأسهم بينهم شديد؛ { **بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى** } [سورة الحشر: الآية ١٤]، فمن شقائهم يوم القيامة أن نفوسهم لا تُشفى ولا تُزكَّى، ففُرقة قلوبهم والحقد والعداوة التي كان في صدورهم؛ تظل معهم يوم القيامة، كما عذَّبتهم في الدنيا؛ تُعذبهم في الآخرة، وكما شَقوا بها في الدنيا؛ يشقَوْن بها في الآخرة.

أما المؤمنون فلمَّا كانوا متآلفين في الدنيا كان من جزائهم في الآخرة أن ينزع الله الإحَن التي في صدورهم؛ { **وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ** } [سورة الحجر: الآية ٤٧]، فتَصفية الطِّباع خاص بأهل الجنة لا غير، زكّاهم في الدنيا ثم زكّاهم في الآخرة.

ومنه أصَّلَ القُشيْريّ قاعدته الدقيقة: "اجتماع النفوس مع تنافر القلوب موجِبُ كل تخاذُل، ومقتضى تجاسُر العدوّ، واتفاق القلوب والتساوي في القصد يوجب كل ظفر"(١)، وهذا حقّ، فالتآلف موجِب للتناصر، والتآخي يورث التكاتف.

فبهذه الثلاثية: الاعتقاد والشعور والاصطفاف؛ تعود الجماعة المؤمنة إلى فضائها الذي ينبغي أن تكون عليه، بعد أن أخرجها الاستضعاف والاستخفاف من موقعها الأصيل إلى مواقع مغايرة مصطنعة وهجينة.

و"**الاصطفاف**" مفهوم جامع لكل أنواع النُّصرة، فالاصطفاف

---

(١) عبد الكريم بن هوازن القُشيْريّ: لطائف الإشارات، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة)، الطبعة الثالثة، ج ٣ ص ٥٦٣: ٥٦٤.

المتوجِّب؛ اصطفافٌ في الولاء والبراء، اصطفافٌ في العِزة والألم والشعور، اصطفافٌ في الأولويات والواجبات، اصطفافٌ في "**المُفاصلة**" مع أعداء الأُمة؛ الذين في الصفوف الأمامية منهم، والذين في ظهورهم.

فـ"المُقاطعة" التي يرفع المسلمون شعارها - وحقٌّ هي، فإنها إبقاء الفعل حاضرًا في أذهان المُكبَّلين - لا ينبغي أن تحدّها الماديات، بل يجب أن تكون مقاطعة قيم وتصورات وعادات وأخلاق وفلسفات ومعايير وممارسات وأساليب حياة، فـ "المُفاصلة" هي "**عبادة البراء**"، وهي أكبر من أن تُحدّ في منتجات وخدمات.

ذلك أن المشاركة في الهيئة والهَدْي الظاهر وأساليب الحياة؛ تورث تماثلًا وتجانسًا بين المُتشابهين يؤدي مع الوقت إلى الموافقة في المحبوبات والمكروهات، ومن ثمَّ الأخلاق والسلوكيات، وجعلها كلها معايير حاكمة وأصول تُرد إليها الأفكار والمفاهيم، في حين أن المخالفة توجب تمايُزًا وتبايُنًا ومفارقة تؤدي إلى المفارقة في المحبوبات والمكروهات، ومن ثَمَّ الأخلاق والسلوكيات، لذلك استغرب اليهود من النبي صلى الله عليه وسلم: "ما يريدُ هذا الرجلُ؟! لم يدعَ من أمرنا شيئًا إلّا خالفنا فيه"[1]، لأن النبي صلى الله عليه وسلم عمد إلى مخالفتهم في الباطن والظاهر، وفي المعتقد والمظهر، وفي الأفكار والسلوكيات.

فـ "**الولاء والبراء**" يعتق المسلم ويُحرره من كل أشكال

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠/ كتاب الحَيْض) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

الهيمنة المفروضة عليهم من غير السلطان الإلهي، وما يتصل به من الفهم عن الله عزَّ وجلَّ، والعلم عن الله عزَّ وجلَّ، ويمنح النفس المؤمنة قدرة على التحكم في استقلالها وعِزتها وقدرتها على الفعل وعلى الاختيار، ويحاصر كل شعور يعتريها بالنقص والدونية تجاه الآخرين، فتستطيع أن تُناصر وتقاوم وترفض وتُعادي وتُقاطع وتنهض وتصنع وتقهر، وهذا كله لا يكون إلا لمن ملك زمام أمره واستمد قوَّته من قوة خالقه لا من الآخرين.

فالولاء لغةً يعني: القُرب، ومنه جاء المعنى المعروف من حيث هو محبة ونُصرة. والبراء من مادة "برأ"، أي: فارق الشيء لبُغضه وكُرهه له، لكن ما يُعطي هذه المحبة وهذا البُغض قيمته حيث يكونان ولاءً وبراءً "في الإسلام"؛ هو اقترانهما بالاعتقاد والسلوك، فتصير المحبة والبُغض على وجه التعبد، محبةً للمؤمنين وبُغضًا للكافرين.

فالولاء والبراء عهد شعوري على وجه التعبد، مُحمَّل بعقيدة ونابع منها، مستوجبًا لتكاليف دينية، بمقتضاه تنشأ العديد من الأواصر والصلات والأحكام الشرعية بهدف تعميق هذا الشعور التعبدي، مثل آواصر وصلات: الأخوة والولاية، ومثل أحكام: منع الاستغفار لغير المسلم، ومنع مظاهرة غير المسلمين، أي اتخاذهم ظهورًا وأنصارًا قِبل المسلمين، وغير ذلك من لوازم الولاء والبراء، ذلك أنه نظام يُرتب "مواطنة" من نوع خاص[1]، لا تنتمي إلى الحدود والأرض إنما تنتمي إلى العقيدة والدين.

(١) أقول ذلك تجوزًا فقط، لإيصال الفكرة.

ومعنى كون الولاء والبراء تعبديًّا، أنه محل سؤال وجزاء، سؤال أمام الله عزَّ وجلَّ، وجزاء من الله عزَّ وجلَّ، وهذه حقيقة يغفل عنها الكثيرون.

ومعنى كونه شعوريًّا أن المشاعر الناتجة عنه تلقائية، أي تتولد بحسب ترسُّخ الولاء والبراء في النفس، فكلما قوي الولاء والبراء في النفس تولدت المشاعر التي يستوجبها وغلبت على القلب تلقائيًّا بلا تكلُّف!

وهو وإن كان جوهره نُصرة ومجاهدة، نُصرة للمؤمنين ومجاهدة لأعدائهم، لكنه يستلزم كل ما يحُول دون انفصام عُرى التآلف بين المؤمنين، أو التطبيع مع أعدائهم، ومنه ترك مشابهة غير المسلمين واتِّباعهم مما يدخل في الولاء لغير المؤمنين، قال تعالى: { **اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إلَيْكم مِن رَبِّكم ولا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أوْلِياءَ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ** } [سورة الأعراف: الآية ٣]، ومنه تكافؤ دماء المسلمين وأنه لا يسَعُهُم إلا التناصر، مهما فصلت بينهم حدود وحالت دونهم موانع، فالدماء الزكية في السودان هي نفسها الزكية في فلسطين، نفوس المؤمنين متصلة وقلوبهم موصولة، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ، وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ**»[1]، فتوحيد مُضادَّتهم في «**مَنْ سِوَاهُمْ**» تأكيد على

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في سننه (٤٥٣٠/ كتاب الدِّيات) والنسائي في سننه (٤٧٣٤/ كتاب القَسامَة) وأحمد في مسنده (٢/ ٢٨٦) وغيرهم من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأخرجه أبو داود في سننه (٢٧٥١/ كتاب الجهاد) وأحمد في مسنده (١١/ ٤٠١: ٤٠٢) وغيرهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما بسندٍ حسن، وأخرجه أبو يعلى في مسنده (٨/ ١٩٧) والبيهقي في سننه الكبرى (٨/ ٥٥) وغيرهما عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بسند حسن، وأخرجه ابن ماجه في سننه (٣٥٨٣/ كتاب الدِّيات) وغيره من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

المعنى الذي يدور عليه توحيدهم هم، وهو أن أخوة الإسلام هي التي تجمعهم.

أعتقد أننا اليوم أكثر فهمًا لهذا المعنى، حين نرى الهيمنة الغربية التي تُحيط النظم التي توصف بأنها عربية وإسلامية، والعقليات التي تنتمي لهذا الحيز المكاني، في حين تعجز عن فعل أي شيء لأهلنا في فلسطين، والسبب الرئيسي في ذلك عدم العمل بعقيدة الولاء والبراء وتشريع الولاء والبراء، فهل يمكن أن يُقال عن هذه النظم وهذه العقليات أنها "حُرة" من كل أشكال الهيمنة المفروضة عليهم من غير السماء؟!

إن أحد أهم المعاني الجوهرية في الولاء والبراء، أن كلًّا منهما انعكاسٌ للآخر، فكلما قوي الولاء للمسلمين قوي البراء من غيرهم، وكلما ضعُف الولاء ضعُف البراء، فمن قَلَّت عزّته بالله عزَّ وجلَّ تورَّط في مهانة العِزة بغيره وهو عين الذُّلّ، النفس لا تتورط في الذُّلّ والافتقار لبشر إلا إذا انحرفت عن الذُّلّ لله تعالى والافتقار إليه، وإن من المعاني الجوهرية للتوحيد رفع الذُّلّ عن الناس، لذلك كان من جوامع دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: «**اللهم اكْفني بحلالكَ عن حَرامِكَ، وأَغْنني بفضلكَ عمن سِواكَ**»[1]، وبعض الناس يحصر مجاله في "الرزق" فقط، بالمعنى المادي الضيق، وهو وإن تَضمنه بلا شك، لكن عموم ألفاظه يؤكد أن مجاله أوسع من ذلك بكثير، فهذا سؤال العِزة بالله والبراءة من العِزة بغيره في كل

(١) حسن لشواهده: أخرجه الترمذي في سننه (٣٥٦٣/ أبواب الدعوات)، وأحمد في مسنده (٢/ ٤٣٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ٧٢١)، والبزار في مسنده (٢/ ١٨٥)، وغيرهم من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، بسندٍ فيه ضعف لكن ضعفه قريب، والحديث في فضائل الأعمال ولمعناه شواهد عدة.

أشكالها، فـ «**اكْفني... وأَغْنني**» أي بافتقاري إليك وحدك لا أحد غيرك، لا في دَيْنٍ ولا عملٍ ولا مظلمةٍ ولا أي سعي أسعى فيه. كان أحمد بن حنبل يقول: "أخذنا هذا العالَمَ بالذُّلِّ، فلا ندْفَعُهُ إلا بالذُّلّ"، أي لله لا أحد غيره.

النُّفرة والتثاقل:
الشِّدة مُهيِّجة للزَوْغ

لا شك أن كل حدث للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم يُمثِّل لحظة من لحظات معركة الإيمان والكفر، وهذه اللحظات نفسها تتكرر للمؤمنين عبر التاريخ، فهي الصورة التي ننظر من خلالها لهذا التدافع بين الحق والباطل، وكيف يواجه من جهة الإسلام والمسلمين، واستدعاؤنا الآيات القرآنية في الواقع الذي نعيشه إنما هو في الحقيقة استدعاءٌ لهذه اللحظة التاريخية التي تُمثِّل سبيل الخلاص.

إحدى هذه اللحظات التاريخية التي يتعين تأملها "**ساعة العُسرة**"، يقول الله تعالى: {**لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**} [سورة التوبة: الآية ١١٧]، وهي التي نزلت في شأن غزوة تبوك.

فالقرآن حين يُخبرنا عن هذه القصة، وهذه التفاصيل التي اهتم بها، لا يُعنى بالسرد القصصي أكثر من عنايته بالدرس الشرعي والسُّنة الإلهية، فكل قصة نبوية خُلدت بالوحي القرآني، دون سواها، لها مغزًى جليل وعظيم يتجاوز القصة، ليتأهب كل من هو مخاطَب بالقرآن ويستعد، فمن عرف الشيء وعواقبه أعد العُدة.

فلماذا خصّ الله تعالى أصحاب العُسرة بهذه التوبة، وهذا

الفضل العظيم بذكرهم في القرآن، حيث يُتلى ويذكرون إلى يوم القيامة؟!

لأجل "**الاتباع**"، وإن كان الاتباع فضيلة في كل الأحوال، خاصةً في زمن النبوة، حيث المتَّبعون هم الصحابة الأجلاء، أكرم الخلق بعد الأنبياء، وفيهم من فيهم أهل بدر وبيعة الرضوان، لكن الاتباع الذي هنا اتباع في العُسرة، فالاتباع فضيلة، والاتباع في ساعة العُسرة فضيلة أخرى.

بل الآية جمعت بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وسلم في التوبة، فالاتباع المذكور في الآية عند أكثر المفسرين اتباع الله جل في علاه، فدلّ ذلك على أن التوبة هنا للفت النظر لأمر آخر مهم، وهو بيان قيمة فضيلة خاصة، وتأكيد أن الله تعالى لأجل هذه الفضيلة العظيمة لا يُؤاخِذهم بما قد يَحْسبون أنهم مؤاخَذون عليه، فيُزيل عن نفوسهم أي أسًى قد يجدونه وما عسى أن يشعروا به من تقصير، لأن المؤمن يستشعر ذنوبه كأنه «**قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ**» كما قال النبي صلى الله عليه وسلم[1]، فهذه الفضيلة لا تُرتب ثواب التوبة فقط، بل ترتب ما هو أبعد من ذلك، من شرح الصدر وإزالة أي هم في القلب، وهذا من جنس عملهم، وهو متابعة المؤمنين في أشد الأوقات وأعسرها، فكان الجزاء من جنس العمل، فمن أصول الشريعة أن مَن كان في حاجة أخيه؛ كان الله في حاجته، ومن يسَّر على مُعسرٍ؛ يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبدُ في عون أخيه.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه (٦٣٠٨/ كتاب الدعوات)، ومسلم في صحيحه (٢٧٤٤/ كتاب التوبة)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

لذلك بلغوا هذا القدر العظيم من المنزلة، وهي أن يتوبَ اللهُ عليهم، ويُخبر أهل ملة الإسلام جميعًا أنه تاب عليهم، وهي غاية الغايات، فكما يقول ابن تيمية: "غايةُ كُلِّ مؤمنٍ التوبة"[١].

ومن شدة قيمة هذه الفضيلة أن بيانها في القرآن جاء قبل بيان تحذيري من التقاعس والتوبيخ على التخلّف، فيما يخص الثلاثة الذين تخلَّفوا عن غزوة تبوك وتاب الله عليهم بعدما ابتلاهم الله عزَّ وجلَّ بما ابتلاهم به من تضييق ومقاطعة من المؤمنين، إذ يقول الله تعالى بعد هذه الآية مباشرةً: { **وعَلى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتّى إذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرْضُ بما رَحُبَتْ وضاقَتْ عَلَيْهِمْ أنْفُسُهم وظَنُّوا أنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إلّا إلَيْهِ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إنَّ اللَّهَ هو التَّوّابُ الرَّحِيمُ** } [سورة التوبة: الآية ١١٨].

فهذا الانتقال في سياق الكلام يُبرز فضيلة ساعة العُسرة أكثر، ويُبين عظمتها، فبضدها تتميز الأشياء، فهذه المفارقة بين الآيتين تُظهِر المعنى وتُجَلِّيه، والمناسبة بينهما تدل على أن هذا التضييق الذي تعرَّض له الذين تخلَّفوا – وهم من الصحابة وخيرة المؤمنين، يكفي أنهم تابوا توبة أخبر الله جل في علاه بنفسه بصدقها وقبولها في كتابه الكريم – كان من جنس العمل الذي قاموا به، كأن الله عزَّ وجلَّ ينبهنا إلى أن التخلف عن المؤمنين في الوقت الذي هم في أشد الحاجة فيه للمؤمن؛ له أثر في الدنيا في القلب وفي النفس، قبل أن يُجازَى عنه في الآخرة.

ولذلك ماذا يقول الله عزَّ وجلَّ في شأن "**الخوالف**" الذين لم

(١) أحمد بن عبد الحليم بن تيمية: مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ج ١١ ص ٦٨٨.

يتوبوا؟ ولنلاحظ قيد التوبة، فإن الإسلام لا يُغلق باب رجعة في وجه أحد.

قال: { **إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** } [سورة التوبة: الآية ٩٣]، فهؤلاء الخوالف لما تقبَّلت نفوسهم الذُّلّ والهوان والهزيمة النفسية وأن يكونوا من أصحاب الأعذار وهم ليسوا كذلك؛ كان الجزاء من جنس العمل؛ الطبع على القلوب، واستعمل القرآن هذا التعبير في الموضعين نفسهما اللذين ورد فيهما ذكر هؤلاء المنافقين الذين تخلفوا عن معارك الإسلام الفاصلة؛ { **وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ** } [سورة التوبة: الآية ٩٣]، { **وطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ** } [سورة التوبة: الآية ٨٧]، فلا يشعرون بغيرة ولا حمية ولا معنى الإقدام والكرامة، فحُرموا حتى نعمة العلم والندم والتوبة، وهو غاية الخذلان.

فهذه الطبيعة، طبيعة "الخوالف" متكررة في كل زمان ومكان تحدُث فيه الشِّدة، فلكل شِدة خوالفها! فهي حالة أراد الله عزَّ وجلَّ أن يصفها لنا بتشبيهٍ مُهين في غاية الإعجاز، فاكتفى فيها بوصف: { **الْخَوَالِفِ** }، أحرار ملكوا أن يفعلوا شيئًا، في وضع يدفعهم للانتصار لكرامتهم؛ ومع ذلك رضوا بما لا يرضى به حُر؛ أن يكونوا مع أصحاب الأعذار من النساء والعجزة، فلا اعتبار لهم في صنف الرجال!

فالمِحن العظيمة التي تمر بنا تؤكد لنا أن القرآن نبع صافٍ نقرأ به واقعنا، فنُدرك سُنن الله الإلهية في النفس وفي الحياة.

وإن من أكبر غنائم هذه المِحن أننا أدركنا في كتاب الله عزَّ

وجلَّ معانيَ لم نُدركها، ولم يكن لنا أن نُدركها لو عشنا ألف سنةٍ فوق ألف سنةٍ كالتي عشناها قبل المِحنة، فمن أين لنا أن نُدرك كيف تكون موالاة أعداء الله عزَّ وجلَّ، والانغماس في الاعتزاز بهم، مهما بدت البغضاء من أفواههم، وظهرت عداوتهم للدين وللمسلمين وموالاتهم لبعضهم، من قول الله تعالى: { **يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا اليَهُودَ والنَّصارى أَوْلِياءَ بَعْضُهم أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرى الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشى أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ** } [سورة المائدة: الآيتان ٥١: ٥٢]؟!

ولنتدبر لفظة { **فِيهِمْ** }، فلم يقل "إليهم" مع أنها الأوقع لأنظارنا القاصرة، لكنه قال { **فِيهِمْ** } لأنهم مستمرون في موالاتهم والاعتزاز بهم، منغمسون في محبتهم، مستقرون في الاعتزاز والتطبيع والموالاة!

من أين لنا أن نُدرك كيف يكون الركون إلى أعداء الدين وكيف يكون خسرانهم من قول الله تعالى: { **لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ باللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ ورَسُولَهُ ولَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ** }، وقوله: { **ولا تَرْكَنُوا إِلَى الَذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ومَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ** }؟! وكيف نُدرك كيف يُميِّز الله تعالى المؤمن الصادق من الكاذب من قوله تعالى: { **أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** }؟! وكيف نُدرك أن من ثمن الجنة مصابرة الضعف والصبر على البلاء الشديد من قوله تعالى: { **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الجَنَّةَ ولَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ البَأْسَاءُ والضَّرَّاءُ وزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ**

الرَّسُولُ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ }؟! كيف لنا أن ندرك كل هذا، دون أن نُعاينَ ما مررنا به من مِحن؟!

وبعض الناس يتصور أن عظمة "ساعة العُسرة"، كانت في الجهاد والقتال إلى جوار النبي صلى الله عليه وسلم فحسب، لكن ما فعله أهل هذه الساعة كان أخصَّ من ذلك، لقد كان ما فعلوه صناعة القُدرة في كل ظروف العجز، صناعة القوة في كل ظروف الضعف، ولنتصور هذا الأمر، لنسمع ماذا قال الصحابة والتابعون حول هذه الساعة الحرجة!

يقول جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: "اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ عُسْرَةُ الظَّهْرِ، وَعُسْرَةُ الزَّادِ، وَعُسْرَةُ الْمَاءِ"!

وسُئل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن ساعة العُسْرَة، فقال: "خَرَجْنَا فِي قَيْظٍ شَدِيدٍ، فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا أَصَابَنَا فِيهِ عَطَشٌ شَدِيدٌ، حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّ رِقَابَنَا سَتَنْقَطِعُ مِنَ الْعَطَشِ، وَحَتَّى أَنَّ الرَّجُلَ لَيَنْحَرُ بَعِيرَهُ، فَيَعْصِرُ فَرْثَهُ[1] فَيَشْرَبُهُ، وَيَجْعَلُ مَا بَقِيَ عَلَى كَبِدِهِ"!

يقول مجاهد التابعي الجليل: "خَرَجُوا إِلَيْهَا فِي شِدَّةٍ مِنَ الْأَمْرِ فِي سَنَةٍ مُجدبة وَحَرٍّ شَدِيدٍ، وَعُسْرٍ مِنَ الزَّادِ وَالْمَاءِ"، ويقول الحسن البصري: "كان العشرةُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَخْرُجُونَ عَلَى بَعِيرٍ يَعْتَقِبُونَهُ بَيْنَهُمْ، وَكَانَ زَادَهُمُ التَّمْرُ الْمُتَسَوِّسُ وَالشَّعِيرُ الْمُتَغَيِّرُ وَالْإِهَالَةُ[2] الْمُنْتِنَةُ، فَإِذَا بَلَغَ الْجُوعُ مِنْ أَحَدِهِمْ أَخَذَ التَّمْرَةَ فَلَاكَهَا حَتَّى يَجِدَ طَعْمَهَا، ثُمَّ يُعْطِيهَا صَاحِبَهُ، حَتَّى يَشْرَبَ عَلَيْهَا جَرْعَةً مِنْ مَاءٍ – وفي

(١) أي يعصر كرشته التي يكون فيها الفضلات!

(٢) أي الشحم.

لفظ قتادة: يَمُصُّهَا ثُمَّ يَشْرَبُ عَلَيْهَا – كَذَلِكَ حَتَّى تَأْتِيَ عَلَى آخِرِهِمْ، فَلَا يَبْقَى مِنَ التَّمْرَةِ إِلَّا النَّوَاةُ، مَضَوْا مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم عَلَى صِدْقِهِمْ وَيَقِينِهِمْ"!

أتذكر الآن هؤلاء الشباب القسّاميين، الذين حوصروا في نفق في بلدة "القرارة" قرب خان يونس جنوب "غزة"، في رمضان عام ٢٠١٤م لمدة واحد وعشرين يومًا، وكانوا تسعة وعشرين مجاهدًا، فنَفَد ما معهم من ماء وطعام، وظل معهم عدة تمرات، جعلوا لكل واحد تمرة، كان يشقها نصفين يأكل نصفًا للإفطار ونصفًا للسحور، وظلوا من دون ماء حتى فوجئوا بماء بطين يخرج من الأرض، فكانوا يرشحونها بإسفنجة في زجاجة يشربون منها، مات منهم ستة، ونجا ثلاثة وعشرون شابًّا، فهذا مشهد حاضر يقرِّب لنا الصورة، ونفهم به معنًى مهمًّا وهو أن العُسرة حالة، كما الجاهلية وغيرها من اللحظات الزمنية التي أعطاها القرآن وصفًا محملًا بالذم أو المدح والوعد أو الوعيد، فهي ليست حبيسة زمنها، بل تتكرر في حياة الناس، ليس بذاتها ولا بأشخاصها وأقدارهم، لكن بأوصافها أو بعض أوصافها، ليتحقق الإعجاز في القرآن وأنه جاء مخاطبًا الناس في كل زمان ومكان.

فالاتباع الذي أشارت إليه الآيات؛ كان الاتباع على الشِّدة، حتى ذكر بعض أهل العلم أن إحدى أهم المجاعات التي وقعت للمسلمين في عصر النبوة والخلافة الراشدة، ما حدث إبّان غزوة تبوك، فلنا أن نتخيل، اجتمع عليهم شِدة الجهاد والجوع والعطش والظَّهر، ومع ذلك تمسكوا باتباع الله عزَّ وجلَّ واتباع نبيه صلى الله عليه وسلم.

إن من أعظم بلاءات الشِّدة أنها مُهيِّجة للممانعة والزوغ، فليس كل أحد يَقدِر على الاتباع حينئذٍ، وهو قول الله تعالى: { **مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ** } [سورة التوبة: الآية ١١٧]، في الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما: "تَعدِلُ عن الحقِّ في الممانعة والنُّصرة"[١]، أي تميل عن الاتباع والنُّصرة، وهذا أمر لو تعلمون عظيم، فهذه الآية نزلت في الصحابة الذين ربما منهم من هاجر أو شهد بيعة الرضوان أو بدرًا أو أُحدًا، وهم من هم، لنعلم كيف أن الشِّدة كاشفة، وهذا اللفظ { **كادَ** } لحفظ أقدار هؤلاء الكرام الكبار الأجلاء عظماء الدنيا، وإلا فإن فتنة الشِّدة عظيمة وخطيرة!

وكان أول ما اتبعوا عليه هو "**النَّفير**"، فالأمر الذي اتبعوا عليه هو: { **انْفِرُوا خِفافًا وثِقالًا وجاهِدُوا بِأمْوالِكم وأنْفُسِكم في سَبيلِ اللَّهِ ذَلِكم خَيْرٌ لَكم إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** } [سورة التوبة: الآية ٤١]، فالشِّدة استوجبت أمرًا يوازيها في الشِّدة مع النفس والجدية، فلفظ { **انْفِرُوا** } يُشعر بأن فيه مقاومة لشيء وخروج عن المألوف، ولذلك تأمَّل كيف أن هذا الأمر أكثر وروده في القرآن كان ما تعلَّق بأمر شدة تبوك، وكلها في سورة التوبة، عدا موضع واحد في سورة النساء ورد عامًّا.

وتأمَّل كيف يستحث القرآن المؤمنين على هذا "النَّفير" بقوله: { **ذَلِكم خَيْرٌ لَكم** }، من يقرأ التفاسير يجد كثيرًا منها يطرح هذا السؤال؛ خيرٌ مِن ماذا؟ وهل في القعود خير؟!

---

(١) محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية (القاهرة)، الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م، ج ٨ ص ٢٨٠.

ويحاول بجُهد الإجابة عن هذا السؤال المُحيِّر، لعل أبدعها على الإطلاق قول البقاعي أن ذلك "خيرٌ في نفسه"[١]، فخيريته مطلقة لا يُقارَن بأي خير لا في الدنو ولا في العلو، خيرٌ اختصكم الله به، فهو من خصائص هذه الأمة ومن دلائل خيريتها!

ولأن هذه الخيرية غير محدودة بحد؛ عمَّمت الآية بلفظ: { **ذَلِكم خَيْر** }، فأكثر بركات الجهاد بالنفس والمال، وأعظمها غير محسوس، يدفع الغم، ويُثبِّت الفؤاد، ويُزكّي النفس، ويُحق الحق، ويُبطل الباطل، ويُذهب غيظ القلوب، لذلك كان ذروة سنام الإسلام، وكان مجرد طلب النفس له بصدق مبلغًا لمنازل الشهداء، وفي الحديث قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْقَانِتِ بِآيَاتِ اللهِ، لَا يَفْتُرُ مِنْ صِيَامٍ، وَلَا صَلَاةٍ، حَتَّى يَرْجِعَ الْمُجَاهِدُ**»[٢]، أي من لا ينقطع عن العبادة لا ليلًا ولا نهارًا.

ومن جنسه "**الرِّباط**"، قال صلى الله عليه وسلم: «**رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَّانَ**»[٣]، فكل ميت يُختم على عمله، إلا المُرابط فإن الله يُنمي له عمله إلى يوم القيامة، حتى أنه من لزوم ذلك أن يُؤَمَّن من فتن القبر؛ إذ وقعت بين عمله وبين قيام

---

(١) إبراهيم بن عمر البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مرجع سابق، ج ١ ص ٣٧٥.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم في صحيحه (١٨٧٨/ كتاب الإمارة) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم في صحيحه (١٩١٣/ كتاب الإمارة) من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه.

القيامة، فالجزاء كان من جنس العمل، حبسوا أنفسهم لله فأجرى لهم أعمالهم!

بل حين سُئل عن أي الناس أفضل؟ قال: «**مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ**»[١]، وقال صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ مُقَامَ أَحَدِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ سَبْعِينَ عَامًا، مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَوَاقَ نَاقَةٍ وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ**»[٢]، وليس المراد بالسبعين؛ هذا العدد نفسه، بل المراد الكثرة، والمراد بـ «**فَوَاقَ نَاقَةٍ**»[٣] أنه يقاتل بما في إمكانه.

ولو كانت بركات الجهاد محسوسة لأقبل الناس عليه إقبالًا منقطع النظير، لكن الله أخفاها بحيث لا يُدركها إلا من تجرأت نفسه عليه، لذلك من عجيب ما ذكره ابن القيم أن الله عزَّ وجلَّ "أذن للمسلمين في بدر بالجهاد من غير إيجاب عليهم ليُذيقهم حلاوته، وكان أشق شيء على نفوسهم، فجعله إلى اختيارهم إذنًا لا حتمًا؛ فلما ذاقوا عِزه وعرفوا عواقبه الحميدة؛ أوجبه عليهم حتمًا فانقادوا

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه (٢٧٨٦/ كتاب الجهاد والسِّيَر)، ومسلم في صحيحه (١٨٨٨/ كتاب الإمارة)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) صحيح بشواهده: أخرجه الترمذي في سننه (١٦٥٠/ أبواب فضائل الجهاد)، وأحمد في مسنده (٢/ ٤٤٦، ٥٢٤)، والبزار في مسنده (١٥/ ١٠٥)، والحاكم في المُستدرك (٢/ ٧٨)، وغيرهم، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، بلفظ «**ستين**» بدلًا من «**سبعين**»، وانفرد الترمذي في روايته بلفظ «**سبعين**»، ولا يضر لاحتمال التصحيف والوهم في العدد، فإسناد الحديث حسن، لأجل هشام بن سعد إذ تكلم بعضهم في حفظه لكن الراجح أنه صدوق حسن الرواية، والحديث له شواهد عدة يرقى بها للصحة.

(٣) أي ولو بمقدار ما بين حَلْبَتَيْن للناقة، أو ما بين جر ضَرْعِها إلى جره مرة أخرى، والمبالغة ترغيبًا في الجهاد.

له طوعًا ومحبة"[١]! قال سُفيان بن عُيينة لابن المبارك: "إذا رأيتَ الناسَ قد اختلفوا فعليك بالمجاهدين وأهل الثغور، فإن الله تعالى يقول: { **لنهدينَّهُم سُبُلنا** } [سورة العنكبوت: الآية ٦٩]".

ولعلنا في محنة الجهادَيْن الأفغاني والبوسني، أدركنا هذا المعنى وهذه الخيرية، ولنقارن مثلًا مكتسبات المسلمين في هذه المِحن من أين أتت؟ هل عن طريق حقوق الإنسان ومجلس الأمن والمنظمات والمناشدات الدولية والمفاوضات ودعاوى السلام، أم من وقفة المجاهدين على الأرض وثباتهم في الميدان؟!

لذلك يحث القرآن المؤمنين على النفير بالتأكيد على خيريته، ولنلاحظ كيف أن انبهارات كثير من الناس مع "طوفان الأقصى" تبدلت بين عشيةٍ وضُحاها، سواء بالأشخاص أو الأشياء أو الأفكار، وهذا معنى قول ابن خلدون: "المغلوب مولع بتقليد الغالب"، فإن العِزة موجِبة لتوحيد الكلمة وإصلاح النفس وجمع الناس، لذلك نجد القرآن يربط بين القوة وصلاح الناس بقوله: { **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا** } [سورة النصر: الآيتان ١: ٢]، حتى قال البِقاعي: "كانوا يُسْلمونَ أُمةً أُمةً في خِفةٍ وسُرعةٍ ومُفاجأةٍ ولين"[٢]، فمراغمة العدو وكسر شوكته؛ أول خطوة في إصلاح الناس والأخذ بيدها للخير.

فالإسلام سلعة مضمونة الرواج، لا تصل حقيقته لجماعة إلا

(١) ابن قيم الجوزية: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، دار الكتب العلمية (بيروت)، ج ٢ ص ٢٩: ٣٠.

(٢) إبراهيم بن عمر البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مرجع سابق، ج ٢٢ ص ٣١٦.

وانحطت أمامه سائر القوى والأفهام، وهو سر قوته.

لذلك يحث القرآن المؤمنين على أن يتذكروا أيام عِزّهم ويتدبروها، فإن من أخص ما يُرسخه الإسلام في النفس "**إلف العِزّة**"، قال تعالى: {**وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ**}، قال الطاهر بن عاشور: "أيام ظهور بطشه وغَلْبه وتأييد المؤمنين على عدوهم، فإن ذلك مظهرٌ من مظاهر عزةِ الله تعالى"[١]، ثم قال: {**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**} [سورة إبراهيم: الآية ٥]، فجعل عزَّ وجلَّ التذكير بهذه الأيام عبادة، ليألف الناس العِزّة، وتدوم فيهم السلوى بها، فيتصبرون بها في أيام بلائهم، ويشكرون الله عليها في أيام عِزّهم، فهذا قوله: {**لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**}.

ولذلك، يستغرب القرآن من المسلمين؛ كيف لهم أن يستقبلوا الأمر بـ "النّفير" بـ "التثاقل"، فيقول: {**ما لَكم إذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا في سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إلى الأرْضِ**} [سورة التوبة: الآية ٣٨]؟!

فانظر كيف عبَّر عن هذه الممانعة بـ "التثاقل"؛ {**اثَّاقَلْتُمْ إلى الأرْضِ**}، لنتدبر هذا اللفظ البليغ {**اثَّاقَلْتُمْ**} الذي يُفيد معانيَ كثيرة: القعود والتخلف والجُبن والكسل والضعف واليأس والإحباط، فكل هذه الأشياء من طبيعة واحدة، ولذلك جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين بعضها في سياق واحد عند الاستعاذة منها: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ وَالحَزَنِ وَالعَجْزِ وَالكَسَلِ وَالبُخْلِ وَالجُبْنِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ**»[٢]، لأن كُلها موجِب للتثاقل إلى

---

(١) محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١٣ ص ١٨٩.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه (٢٨٩٣/ كتاب الجهاد والسِّيَر) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

الأرض، وهو سر الاستعاذة منها جميعًا في سياق واحد، ولذلك في بعض الروايات كان مما استعاذ منه فيما استعاذ منه؛ «**الْهَرَم**» لما يترتب عليه من الخَرَف والسوء والكسل.

وهم العجز

هل كل العجز خروج عن القُدرة؟

قد يظن بعض الناس ذلك، لكنه غير صحيح، بل أكثر العجز شعور، وهو المُلام عليه، يدل على ذلك سياق المكروهات المذكورة في حديث: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ وَالحَزَنِ وَالعَجْزِ وَالكَسَلِ وَالبُخْلِ وَالجُبْنِ...**»، لأن كُره العجز الذي هو خروج عن القُدرة قد يُنافي التسليم بالأقدار والرضا بها، فدلّ ذلك على أن المراد بالاستعاذة من العجز؛ الاستعاذة من الأسباب التي تؤدي إلى العجز، وعدم إدراك أسباب الفعل والقُدرة، لذلك في الحديث: «**إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**»، فالكَيْس الأخذ بالأسباب التي تتوفر للمسلم، وضده العجز وهو التفريط فيه، فالمعنى: إذا أقبلت على شأنٍ فلا تدع أمرًا فيه أدنى نفع لك إلا بذلتَ فيه جُهدك، ولا تدع أمرًا يمكن أن يُضرك إلا احترزتَ منه ما أمكنك، فإنك إن فعلت ذلك وغلبك ما كنت تحذر؛ لم يزل لك عمل وهو قول: «**حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**» فإن الله يكفيك شر ما غلبك ويكفيك هَمَّ العجز عن دفعه.

وهو مقتضى قوله صلى الله عليه وسلم: «**اسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ**»[١]، لأنه كما قال ابن قيم الجوزية: "أصلُ المعاصي كُلها

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٦٤/ كتاب القَدَر) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

العجْز"[١].

فأسباب التثاقل كثيرة، أغلبها مرتبط بمخاوف الدنيا وأطماعها، وما أجمل تعبير سيد قطب عنها بـ "تصورات الأرض"[٢]، أي نابعة من حب الدنيا، مُثقِلة ومُكبِّلة للإنسان مُقعِدة له، ولذلك من بلاغة القرآن العظيم أن الآية التي بعد الحض على النفير مباشرةً جعلت جزاء التثاقل عنه: "**الاستبدال**"، قال تعالى: { **إلّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكم عَذابًا أَلِيمًا ويَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكم ولا تَضُرُّوهُ شَيْئًا واللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } [سورة التوبة: الآية ٣٩]، فحين أخلدوا إلى الأرض تُركوا لها، فكان الجزاء من جنس العمل، فترك الجهاد موجِب للاستبدال، جهادًا بالنفس كان أو بالمال، فالاستبدال - وهو سُنة من سُنن الله عزَّ وجلَّ الإلهية - ورد في القرآن في موضعين، في الجهاد بالنفس في الآية السابقة، وفي الجهاد بالمال في قول الله عزَّ وجلَّ: { **ها أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا في سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكم مَن يَبْخَلُ ومَن يَبْخَلْ فَإنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ واللَّهُ الغَنِيُّ وأَنْتُمُ الفُقَراءُ وإنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكم ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ** } [سورة محمد: الآية ٣٨]، فـ { **أَمْثالَكُمْ** } هذه عن سلب المكانة والشرف، قال الفخر الرازي: "لئلا يَتوهم أحد أن غلبةَ أعداء الدين وعِزَّ الإسلام لا تحصُلُ إلا به"[٣]، وهذا كلام حقيقي بليغ يُصدِّقه التاريخ، فالله عزَّ

(١) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة (بيروت)، مكتبة المنار الإسلامية (الكويت)، الطبعة السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م، ج ٢ ص ٣٢٦.

(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق (القاهرة)، الطبعة السابعة عشر ١٤١٢هـ، ج ٣ ص ١٦٥٥.

(٣) محمد بن عمر بن الحسن الرازي: مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ١٦ ص ٤٨.

وجلَّ جعل الخيرية منوطة بالمسئولية، لذلك قال الله عزَّ وجلَّ في الآية الأولى: { **ولا تَضُرُّوهُ شَيْئًا** }، وفي الآية الثانية: { **ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ** } ومقتضاهما واحد على الحقيقة، فتمكين غيرهم خُذلان لهم، فكأن المعنى أنهم لم يضروا بتأخرهم وتخلفهم إلا أنفسهم، فإنه تعالى إذا أتى بغيرهم فصَدَقوا في نصره؛ صَدَقهم وعدَه، وهذا معنى استعمال تعبير "الاستخلاف" في موضع "الاستبدال" في قوله تعالى: { **فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا** } [سورة هود: الآية ٥٧]، فالله عزَّ وجلَّ مُتمُّ نوره ومُنجِز وعده بنا أو بغيرنا.

فحين نضع تعبير { **انْفِرُوا** } مقابل { **اثّاقَلْتُمْ** }، نُدرك أن كل أمر بالنّفير؛ أمر بمقاومة الجاذبية النفسية للأرض، فلا يقدر على هذا الأمر كل أحد، فعلى قدر مقاومة الجاذبية لتصورات الأرض كان استعداد المؤمن للاستنفار لله عزَّ وجلَّ.

ولذلك، ولأن "التثاقل" عيب نفسي في الأساس؛ استُثني منه هؤلاء الذين لا يجدون، أي لا ينقصهم إلا القُدرة المادية، فالقُدرة المعنوية والاستعداد النفسي موجود، والذين عبَّرت عنهم الآية بـ { **ولا عَلى الَّذِينَ إذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهم قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكم عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وأَعْيُنُهم تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلّا يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ** } [سورة التوبة: الآية ٩٢]، بعد قوله تعالى: { **لَيْسَ عَلى الضُّعَفاءِ ولا عَلى المَرْضى ولا عَلى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إذا نَصَحُوا لِلَّهِ ورَسُولِهِ ما عَلى المُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ واللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } [سورة التوبة: الآية ٩١]، فاقتضت المفارقة بين الآيتين المتعاقبتين أننا أمام عدة أصناف من أصحاب الأعذار:

الأول: أصحاب الأعذار الأصليون من المرضى والضعفاء ومن لديهم نقص في البدن.

والصنف الثاني: الذين لا يجدون ما ينفقون، أي الذين لا يَجدون الأُهْبَةَ والزّادَ والراحِلة.

وصنف ثالث، أفرد الله عزَّ وجلَّ ذكره في سياق المدح في آية مخصوصة وهم { **الَّذِينَ إذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهم قُلْتَ لا أَجِدُ ما أحْمِلُكم عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وأعْيُنُهم تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ** }، فإن قيل: أليس هؤلاء من جُملة الصنف الثاني المذكورين في قوله: { **الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ** }، فما فائدة تخصيصهم بالذكر؟!

فالتخصيص سببه أن هؤلاء يملكون لكن لا يملكون بالقدر الكافي الذي يكفي للحقاهم بالذين جاهدوا، وهذا قال به الفخر الرازي وغيره من المفسرين، فإذا كان { **الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ** }؛ فقراء، فإن { **الَّذِينَ إذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهم** }؛ بمثابة المساكين الذين ملكوا النفقة ولم يملكوا الوسيلة.

لكن في تقديري ثمة معنى آخر أهم، لأن في الآية نفسها قال: { **ألّا يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ** } فحالهم المادي هو حال الفقراء نفسه، فالأبلغ أن يُقال إن هؤلاء من جنس صنف { **الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ** }، لكنه تعالى خصَّهم بالذكر لهذه الفضيلة العظيمة التي لم تحصل لغيرهم، وهي أنهم لم يكتفوا بعُذرهم، إنما جاهدوا في تحصيل الوسيلة ما أمكنهم { **إذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهم** }، فلما عجزوا { **تَوَلَّوْا وأعْيُنُهم تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا** }، فكأن هذا العجز أكل قلوبهم، حتى أنهم من شِدّة ذلك على نفوسهم لم يملكوا عَبرة عيونهم!

ففعلهم كان المشاعر التي صَدقها الجدّ في الانفلات من العُذر، فقد بلغوا بمشاعرهم نهايتها، لذلك لم يُغفل القرآن هذا الصنف من المسلمين، ليُزيل الشرع أي توهُّم حولهم، وكي لا يجتمع عليهم همّان؛ هم الحزن على ما فاتهم، وهم الحزن من توهُّم تقصيرهم، فنفهم المعنى الحقيقي لـ "التثاقل"، ونفهم معنى قول العلماء: "نية المؤمن خير من عمله"، أي أن الله عزَّ وجلَّ ربما أعطى على النية ما لم يُعطه على العمل، بتعبير عبد الله بن المبارك: "رُب عمل صغير تُكثِّره النية، ورُب عمل كثير تُصغِّره النية"[١].

لذلك كان من الحصون التي يعتصم بها المؤمن كلما تملَّكه الشعور بالعجز؛ "النية"، نية الجهاد والشهادة والمُراغمة والمُغالبة ومُصابرة الضعف، نية التجلّد عند البلاء وتحمُّل المكارِه والثبات حين يشتد القتال، وكانوا قديمًا يعتبرون النية إعدادًا يَدخل في جُملة { **وَأَعِدُّوا لَهُمْ** } [سورة الأنفال: الآية ٦٠]، لو صدق المؤمن في نيته، بلغ بها ما لم يبلغ بعمله!

ومن المعاني الدقيقة التي يذكرها أبو طالب المكي: "فالنية الصالحة هي أول العمل الصالح وأول العطاء من الله تعالى وهو مكان الجزاء، إذ للعبد من ثواب الأعمال على حسب ما يهب الله تعالى له من النيّات، فربما اتفق في العمل الواحد نيّات كثيرة على مقدار ما يحتمل العبد من النية، فيكون له بكل نية حسنة، ثم يضاعف كل حسنة عشر أمثالها، كأنها أعمال تجتمع في عمل"[٢]، فإن الذي

(١) محمد بن عثمان الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناءوط، مؤسسة الرسالة (بيروت)، الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج ٨ ص ٤٠٠.

(٢) أبو طالب المكي: قوت القلوب، مرجع سابق، ج ٢ ص ٢٦٧.

يُقاتل أعداء الله تعالى بنية الجهاد والشهادة وغيظ عدوه وإظهار الحق؛ له عن كل نية أجر وعمله واحد، والذي ينصر المسلمين بماله أو لسانه ونيته الولاء لهم وتكثير سوادهم ودفع الظلم عنهم وإحياء نفس مؤمنة؛ له عن كل نية أجر وعمله واحد، فهذه أعمال اجتمعت في عمل.

فالمسلم لا يكون عاجزًا حقيقةً أبدًا، ربما يكون عاجزًا حُكمًا أو مجازًا، لكن حقيقةً؛ لا يكون عاجزًا إلا بالموت أو بإرادته، فمن دقائق الشريعة أن كل مساحة عجز لا بُد أن تُقابلها مساحة استطاعة، وإن قلّت! لذلك مثلًا نجد إنكار المنكر مراتب، فمن تعذَّر عليه عمل اليد؛ تبقَّى له عمل اللسان، ومن فاته عمل اللسان تبقَّى له عمل القلب والمشاعر، فالمسلم لا يخلو عن عمل تجاه واقع، مهما شعر بالعجز تجاه نفسه أو تجاه إخوانه، لماذا؟

لأن غاية وجود المسلم العبودية، والعبودية واجبة بالمقدور عليه لا بما خرج عن القدرة، لأنه كما قال أبو إسحاق الزَجّاج: "من قدَّم العجز في أمرٍ أضاعه"[1].

ولذلك من وصايا النبي صلى الله عليه وسلم البليغة: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ الْخَيْرُ، فَاحْرِصْ عَلَى مَا تَنْتَفِعُ بِهِ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ**»[2]، فمناسبة قوله: «**وَلَا تَعْجِزْ**» مع قوله: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ**»، أي خذ بأضعفِ الأسباب

(١) ابن قيم الجوزية: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، دار المعرفة (بيروت)، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م ص ٩٨.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٦٤/ كتاب القَدَر) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

واستعن بالله، ولا تعجز عن الحرص والاستعانة، فإن الله تعالى يُعطيك قوة بها إذا استقمت على الاستعانة به، والقوة كما تكون في البدن؛ تكون في الإرادة والهمة والبصيرة واليقظة والثبات وعزم القلب.

وهذا يضعنا أمام سؤالٍ مهم؛ هل نحن عاجزون حقًّا؟!

أغلبنا ينظر إلى ما يعجز عنه لا ما يقدر عليه، والشريعة أرحب وأرأف بالمسلم من نفسه التي بين جنبيه، وتأمَّل قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِغَزْوٍ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ نِفَاقٍ**»[1]، فجعل مجرد طلب النفس للجهاد بصدق مبلغًا لمنازلِ الشهداء! لأن تحديث النفس قوة دافعة على العمل، من حدَّث نفسه وهو لا يستطيع اليوم؛ فعل وهو قادر غدًا.

فهذه الإضافة: «**وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِغَزْوٍ**» جوهرية، ونحوها فكرة إنكار المنكر بالقلب: «**فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ، فَبِقَلْبِهِ**»[2]، فهذا خطٌّ ناظم في الشريعة له مغزًى مهم، هو استدعاء ما في مَقْدور الإنسان وما في حَيِّز اسْتطاعته، وحشد طاقته النفسية التي تسَعه دومًا وتدخُل في حُدود قُدرته دائمًا وأبدًا، ولذلك في الأمرين لم يلتمس أي عُذر، بل قطع علاقة الإيمان ونفاها عمن لم يسَعه هذا الشعور النفسي، في الأمر الأول: «**مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ نِفَاقٍ**»، وفي الأمر الثاني: «**وَذَلِكَ**

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في صحيحه (١٩١٠/ كتاب الإمارة) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أي قول النبي صلى الله عليه وسلم: «مَن رَأى منكم مُنكَرًا فلْيُغيِّرْه بيَدِه، فإنْ لم يَستَطِعْ فبِلِسانِه، فإنْ لم يَستَطِعْ فبقَلْبه، وذلك أضعَفُ الإيمانِ».
أخرجه مسلم في صحيحه (٤٩/ كتاب الإيمان) من حديث أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه.

أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»، وليتحقق معنًى آخر مهم، وهو تحريك كل قوى المؤمنين، المادية والشعورية، فلا يبق فيهم أي عاطل، ولهذا قُلتُ إن المؤمن لا يكون عاجزًا أبدًا.

ولنتأمل كيف أن الله عزَّ وجلَّ حين رفع الحرج عن الضعفاء والمرضى والفقراء في قوله: { **لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ** } [سورة التوبة: الآية ٩١]؛ أشار إلى أنه يسَعهم أن ينصحوا لله ولرسوله وسمَّاهم "مُحسِنين"، فهذا لتأكيد فاعليتهم بالحث والترغيب والتحريض والتثبيت، لأن المُحسِن هو من وفَّى بكل ما في وسعه ولم يُبقِ عليه شيئًا، إذ الإعانة على الجهاد، ولو بـ "**الكلمة**"، تجري مجرى الجهاد.

فإن الله عزَّ وجلَّ يُحبُّ من المؤمن أن ينصرَه بنفسه وينصرَه بلسانه، وربما كانت نُصرتُه باللسان أعظم من نصرتِه بالنفس، فبعضُ المعارك لا تُحسم إلا بسيف الحُجة، ولا تُكسب أرض العدو فيها إلا بمدفع الإقناع، ولا ينتصر من ينتصرُ فيها إلا بسلاح البينة، فهل تُفضح الأفكار الزائفة إلا بالكلمة؟! وهل يواجه كذب المُدلسين إلا بالكلمة؟!

العلم كلمة، والدين كلمة، بها يدخل مَن يدخل الإسلام، وبها يخرج منه مَن خرج، ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت رضي الله عنه: «**اهْجُهُمْ وَجِبْرِيلُ مَعَكَ**»[١]؟! ألم يقل: «**أَفْضَلُ**

(١) صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه (٣٢١٣/ كتاب بدْء الخلق)، ومسلم في صحيحه (٢٤٨٦/ كتاب فضائل الصحابة)، من حديث البَراء بن عازب رضي الله عنهما.

الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»[١]؟! ولهذا كان ثمنُ كلمة الحقِّ غاليًا ونفيسًا، فكم في التاريخ من كلمة أدخلَت حاملها السجن! وكم من كلمة تسبَّبَت في نفي صاحبها في الأرض! وكم من كلمة قدَّمَت قائلَها إلى أعوادِ المشانق!

يَنقضِي الزمان وتبلَى الأجساد وتبقى الكلمة.

فحتى الضعيف ومن لا يقدر على التكليف ما زال يقوى على النصيحة وهي الكلمة، فذمته لا تبرأ إلا بها طالما أنه قادرٌ عليها، إذ قوله تعالى: { **مِنْ سَبِيلٍ** } بعد { **إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ** } يعني رفع أسباب المؤاخذة إذا فعلوا ذلك، لأنه كما قال السعدي: "إذا أحسن العبد فيما يقدر عليه، سقط عنه ما لا يقدر عليه"[٢].

ولذلك من دقة التعبير القرآني في الجهاد: { **فانْفِرُوا ثُباتٍ أوِ انْفِرُوا جَمِيعًا** } [سورة النساء: الآية ٧١]، أي أفرادًا وجماعات، مُتفرقين أو مُجتمعين كوكَبة واحدة، ونحوه قول الله تعالى: { **فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجالًا أَوْ رُكْبانًا** }، ومثله: { **انْفِرُوا خِفافًا وثِقالًا** } [سورة التوبة: الآية ٤١]، فالإسلام يفتح المجالات ويُفسح الطرق لتخيُّر أساليب العمل

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في سننه (٤٣٤٤/ كتاب الملاحم)، والترمذي في سننه (٢١٧٤/ أبواب الفِتن)، وابن ماجة في سننه (٤٠١١/ كتاب الفِتن)، وغيرهم من حديث من حديث أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه.

(٢) عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ص ٣٤٧.
وهذا وإن تأكد في الجهاد خاصةً، لكنه يصدُق في كل تكاليف الشريعة، قال ابن العربي: "وهذا أصلٌ في رفع العقاب والعتاب عن كل مُحسِن، في مسائل الشريعة كلها".
أبو بكر بن العربي: أحكام القرآن، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية (بيروت)، الطبعة الثالثة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ج ٢ ص ٥٦٢.

وفعْل ما أمكن، يُريد أن يقول: افعل ما تستطيع، ولذلك من عبقرية الفخر الرازي أنه لما جاء لتفسير الآية الأخيرة، وبعد أن ذكر أقوال المفسرين وأهل اللغة في معناها، قال: "والمراد انفروا سواء كنتم على الصفة التي يخفُّ عليكم الجهاد أو الصفة التي يثقُلُ"[١]، وهذا أليق المعاني بالآية، فالفكرة ليست في الصفة، إنما في الاستجابة للأمر الشرعي، وما ينبغي أن يكون عليه المؤمن.

ولذلك كان من العبوديات عظيمة التقدير عند الله عزَّ وجلَّ: "**جُهد المُقلّ**"، التي وصفها النبي صلى الله عليه وسلم بأفضل الصدقة، وهي العطاء بمشقة، وبذل من لا يقدر إلا على القليل، وهي وإن وردت في عبوديات الأموال، لكنها تصدق في كل قول وعمل، خاصةً في زمن عزَّت فيه القُدرة وضاقت فيه الاستطاعة، في دنيا الماديين؛ منطق الأمور ألا يكون للجُهد القليل هذه القيمة، لكن الله عزَّ وجلَّ يقبله ويُثمنه ويُقدِّمه على ما هو أكبر منه، لماذا؟

لأنه غاية ما يَقدِر عليه المؤمن ويتمكّن منه وتسعه طاقته، ولأنه جعل حاجة نفسه دون سائر الحاجات، ولأنه لا يستعظمه، فالكثرة فتنة لا ينجح فيها كل أحد، والأعمال عند الله تتفاضل بتفاضل القلوب لا بكثرتها ولا بتأثيرها لأن الله عزَّ وجلَّ هو الذي يمنحها التأثير.

فالثقل في "جُهد المُقلّ" في الصدق الكامن في البذل، ولا شيء يعدل صدق السريرة، لذلك كانت النية "إذا ترقبتْ العمل بصدق" أبلغ من العمل، ومن مات على فراشه ربما بلغ "بالأمنية

---

(١) محمد بن عمر بن الحسن الرازي: مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ١٦ ص ٥٥.

الصادقة" منزلة من مات في الميدان، والكلمة "بالحقّ" ربما بلغت مكانة لم يبلغها فعل، وفي الحديث: «**سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ**»[١]، وهذا أصل حاضر في طول الشريعة وعرضها، بل بعض المؤمنين يبلغ درجات عالية في الجنة لم يبلغوها إلا بـ "صبر"، وبعضهم يبلغونها بـ "رضا"، وبعضهم يبلغونها بـ "يقين"، هؤلاء جميعًا يبلغون بترويض نفوسهم درجات من الجنة لم يبلغها غيرهم بعمل.

وهو ليس بالأمر الهين، لأن النفس التي تجود مع ضعف القُدرة، وتُعطي رغم ضيق الاستطاعة؛ مكابدتها أشدّ ودفعها نوازع الممانعة أشق، فإخلاصها أتم وحظها من الإيمان أوفر.

ومن العجائب التي تُروى حول هذا المعنى عن صفوان بن عمرو، أحد تابعي التابعين الثقات، يقول: كنتُ واليًا على حِمْصَ، فلقيتُ شيخًا قد سقطَ حاجِباه، من أهل دمشق على راحلَتِه يُريد الجهاد، قلتُ: يا عم أنتَ مَعْذُورٌ عند الله، فرفع حاجِبَيه وقال: "يا ابن أخي اسْتَنْفَرَنا اللهُ خِفافًا وثِقالًا، ألا إنَّ مَن أحبَّهُ ابْتَلاهُ"[٢]!

لذلك كان من أصول هذا الدين أن المسلم غير مطالب بنتائج، إنما عليه السمع والطاعة والعمل لله والتسليم له، وله الأجر، فعمله عند الله تعالى لا يضيع، سيُجزيه عليه وقتما شاء في الدنيا أو الآخرة

(١) حسن: أخرجه النسائي في سننه (٢٥٢٧/ كتاب الزكاة)، وأحمد في مسنده (١٤/ ٤٩٨) بلفظ: «سَبَقَ دِرْهَمٌ دِرْهَمَيْنِ»، وابن خُزيمة في صحيحه (٢٤٤٣/ كتاب الزكاة)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٧٦)، والبيهقي في سننه الكبرى (٤/ ٣٠٥)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) محمد بن جرير الطبري: جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر ومحمود محمد شاكر، مؤسسة الرسالة (بيروت)، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م، ج ١٤ ص ٢٦٤: ٢٦٥.

أو فيهما معًا، فهو مطالب ببذل عناية لا تحقيق نتيجة، لأن النتائج على الله بأسباب وبلا أسباب، بمقدمات وبلا مقدمات.

فكل نصوص الشريعة تضافرت على كون المسلم مُكلّفًا مأمورًا بالفعل لا النتيجة، بل ولا حتى انتظار النتيجة، فقد تتحقق ويُقر بها عينه، وقد لا يراها في حياته وينعم بها من بعده، وربما لا تتحقق كليةً! كان سيد قطب يقول: "كانوا أُجراء عند الله، حيثما وكيفما أرادهم أن يعملوا؛ عملوا، ثم قبضوا الأجر، ليس لهم ولا عليهم أن تتجه الدعوة إلى أي مصير، فذلك شأن صاحب الأمر لا شأن الأجير".

فلماذا يشغل المسلم أن ينتصرَ أو يُهزم! المسلم مطالَب بـ «**خَذِّلَ عَنَّا النَّاسَ فَخَذِّلْ**»، هكذا كان أمر النبي صلى الله عليه وسلم لنُعَيْم بن مسعود رضي الله عنه يوم الأحزاب: «**إنما أَنْت فِينَا رجل وَاحِد، فخذِّل عَنَّا ما استطعت، فَإِن الْحَرْب خدعة**»، وفي رواية: «**مَا اسْتَطَعْتَ أَنْ تُخَذِّلَ عَنَّا النَّاسَ فَخَذِّلْ**»[١]، ونُعَيْم فردٌ بطولِه، لم يستغرب الأمر أو يرتاب فيه فيقول: أي تخذيل أفعل؟! وكيف يُفيدهم تخذيلي؟! يا ربّ وما مصيرُ المؤمنين، منصورين أم مهزومين؟! بل مضى فورًا لما يَقْدر عليه، بيقين لا يتزعزع مضى يُخذل عن المؤمنين، فأمرُ الله أحب وأصدق!

فمن أسرار هذا الدين أنه لا يترقب النهايات ولا ينتظرها، فالمؤمن مأمور بأن يُبالغ في السعي ولا يُبالغ في الآمال، فإذا كان لا بُد من أن يستنزف مشاعره في أزمنة الغلبة؛ فاستنزافها يكون في

---

(١) سبق تخريجه.

غيظِ عدوه وفي إعاقته وتعطيله، لا يَهم مَن مات، ومَن بقي، فمَن مات؛ لم يمت حقيقةً، بل أحياء سبقونا لأرحب الأوطان وأصدقها، مات ياسر وسُمية رضي الله عنهما، وماذا رأوا من الإسلام إلا «**صَبْرًا آلَ يَاسِرٍ، فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّةُ**»؟!

ومَن بقي؛ فمُبتلًى، بجولةٍ أخرى حتى يلقى الله؛ فإما صادقٌ أو مخذول؛ فالصادقُ منصورٌ وإن مات، والمخذولُ مهزومٌ وإن عاش، كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا عاد مريضًا يقول: «**اللَّهُمَّ اشْفِ عَبْدَكَ يَنْكَأُ لَكَ عَدُوًّا، أَوْ يَمْشِي لَكَ إِلَى صَلَاةٍ**»[1]، فهذه وظائف المؤمن في الحياة: العبودية، وإقامة حُكم الله في الأرض.

ولذلك، كانت "**الاستطاعة**" أحد المعاني المركزية التي أكدت عليها الشريعة، قال تعالى: { **لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا** } [سورة البقرة: الآية ٢٣٣]، { **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** } [سورة البقرة: الآية ٢٨٦]، { **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا** } [سورة الطلاق: الآية ٧]، { **وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** } [سورة المؤمنون: الآية ٦٢]، { **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** } [سورة البقرة: الآية ١٨٥]، فكل الأوامر والنواهي الشرعية؛ الاستطاعة إما أن تكون ركنًا فيها أو شرطًا أو سببًا أو علة، لأن الإسلام دين رحمة، جاء بما يوافق فطرة الناس، وأتى بما يُناسب استعداداتهم الروحية والجسدية.

وإذا كانت العبرة في الاستطاعة بحقيقتها، لا أن تكون

---

(١) صحيح بمجموع طرقه: أخرجه أبو داود في سننه (٣١٠٧/ كتاب الجنائز)، وأحمد في مسنده (١١/ ١٧٣)، والحاكم في المستدرك (١/ ٤٩٥، ٧٣٤)، وعبدُ بن حُميد في مسنده (١٣٧)، وغيرهم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وفي بعض الروايات: «يَمْشِي لَكَ إِلَى جَنَازَةٍ» بدلًا من «يَمْشِي لَكَ إِلَى صَلَاةٍ»، وكلاهما فيه معنى العبودية واستشعار الذلّة لله تعالى.

متوهمة، أي يُكلِّف المسلم نفسه أو غيره ما لا يُطيق فيفتن نفسه ويفتن الناس، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**لا ينبغي للمؤمنِ أن يُذِلَّ نفسَه**»، قالوا: وكيف يُذِلُّ نفسَه؟! قال: «**يتعرضُ من البلاءِ لما لا يُطِيقُ**»، فإذا وقع البلاء صبر وشكر وكان على قدر ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن الحق، «**إِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا**» كما قال النبي صلى الله عليه وسلم[١].

فكذلك العُذر منها يجب أن يكون حقيقيًّا لا متوهمًا، فبعضهم يفهم هذا الأصل في الشريعة بوصفه مبررًا للهروب من الأحكام الشرعية، ويتخذه سبيلًا للتنصل من الأوامر، وهذه جناية في حق الشرع، فعُذر عدم الاستطاعة يجب أن يكون محققًا لا متخيلًا، أي لا ينتقل فيه المسلم من حال أعلى إلى حال أدنى إلا بعذر حقيقي تنتفي به الاستطاعة في التكليف الأعلى، فحين يَقدِر المسلم على بذل النفس للمسلمين فلا ينبغي أن يكتفي ببذل المال، وحين يقدِر على أن ينصرهم بالمال أداءً أو امتناعًا؛ أداءً لهم ومنعًا عن عدوهم، فلا يُعذَر بالاكتفاء بالدعاء، فالله عزَّ وجلَّ يُراقبنا، وسيُحاسبنا على ما فعلناه مما لم يكن علينا أن نفعله، وما لم نفعله في الوقت الذي كان يجب علينا أن نفعله.

فالاستطاعة – على حقيقتها – نعمةٌ قبل أن تكون مسئولية، يقول ابن القيم: "العبدُ لا يملكُ قبل عمله استطاعة، فاستطاعته بيد

(١) صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه (٢٨٣٣، ٣٠٢٦/ كتاب الجهاد والسِّيَر)، ومسلم في صحيحه (١٧٤٢، ١٧٤١/ كتاب الجهاد والسِّيَر)، من حديث عبد الله بن أبي أوْفَى وحديث أبي هريرة رضي الله عنهما.

الله لا بيده"[١]، فكما منحها؛ إن شاء منعها فصار عاجزًا، وهو سر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم إذا عاد مريضًا: "«**اللَّهُمَّ اشْفِ عَبْدَكَ يَنْكَأُ لَكَ عَدُوًّا، أَوْ يَمْشِي لَكَ إِلَى صَلَاةٍ**»[٢]، أي أعطه الاستطاعة يا ربّ يعبُدك ويُعبِّد الناس لك، فالمؤمن العاقل لا يُهدر هذه النعمة إذا وُهِبها، إنما يضعها في موضعها الذي ينبغي أن يضعها فيه، ويَبلُغ بها أقصى ما يقدر عليه، قيل لداود الطائي: "يا أبا سُليمان ما ترى في الرمي، فإني أحب أن أتعلمه؟"، فقال: "إن الرمي لحَسَنٌ، ولكن هي أيامك، فانظر بمَ تقطعها"[٣].

فالواجب على كل مسلم غير محدود بفعل معين، بل محدود باستطاعته، ما يتوجب على أحدنا قد لا يتوجب على الآخر، وقد يتوجب عليه أكثر مما توجَّب على الأول، فكل مسلم يبذل ما استطاع، من يملك أن ينصر بجهاد النفس والرِّباط يفعل، من يملك المال أو إيصاله يُنفق ويوصل، من يستطيع البيان يتكلم ويكتب ويرفع صوت الحقّ، ومع كل ذلك وقبل كل ذلك؛ يملك الدعاء والكلمة الطيبة ومشاركة الهُموم والمسرات، شعاره "رُحماءُ بينهُم".

والمسلم الذي يخون مسئوليته في الدور الذي مكّنه الله تعالى

---

(١) محمد بن أبي بكر قيم الجوزية: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، مرجع سابق، ج ٢ ص ١٤٠.

(٢) صحيح بمجموع طرقه: سبق تخريجه.

(٣) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مرجع سابق، ج ٧ ص ٣٣٦.

الرمي هو التصويب على الأهداف، وداود الطائي لا يقصد التقليل منها، فالنبي صلى الله عليه وسلم حثَّ عليها وقال: «أَلَا وَإِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ»، لكنه قصد فكِّر جيدًا فيما تبذل فيه عمرك، هل ينفعك حقًّا؟! لأن العمر الذي ينقضي لا يعود.

منه، والاستطاعة التي يملكها، لا تنحصر خطورة إثمه في إثم العصيان ومخالفة الأمر أو النهي الشرعيَّيْن، بل إثمه أشدّ وأكبر، لأنه خرق ثقة المؤمنين في هذا الدور وهذه الاستطاعة، ومنه قوله عزَّ وجلَّ في حق العالِم أو الداعية الذي يُضلل الناس: { **فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ** } [سورة البقرة: الآية ٧٩].

بل لا يجوز للمسلم التهرب من تبِعات دوره ووظيفته، ويأثم إذا تقاعس عن تحمُّل هذه التبعات[١]، فالعالِم لا يجوز له كتمان العلم، بل يُطالَب بأن يُبين للناس، قال تعالى: { **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ** } [سورة آل عمران: الآية ١٨٧]، فالعالِم الحقيقيّ هو الذي يعمل بعلمِه في الشدائد؛ فمَن لم ينطق بالحق في وقت الشِّدة لم يُؤتمن أن ينطق بالحق في غيرها، بل ربما عُدَّ ذلك في كثير من الأحيان من موالاة الظالمين، لأن التأييد إما أن يكون بالإقرار أو بالسكوت الذي يُفيد معنى الإقرار، والظالمُ إذا يئس من تأييد العالِم لظُلمه لم يطمع منه في أكثر من أن يُلتفت عنه.

والمُجاهد لا يجوز له التولي يوم الزحف، بل يُطالب ببذل نفسه في سبيل الله، قال تعالى: { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ**

---

(١) فصلتُ أكثر في مسئولية المسلم عن دوره ووظيفته، وفلسفة الدور وعلاقته بالتكاليف الشرعية وفروض الأعيان والكفاية، في "المسئولية: عهود المؤمن وصيانة العلاقات من الخلل" في كتابي الأخير: (عودة الشريعة: في فلسفة الشريعة وتمكينها وحضورها والوعي بها)، الذي سيصدر قريبًا عن مركز أركان للدراسات والأبحاث والنشر.

كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ } [سورة الأنفال: الآية ١٥]، وفي حديث: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**» عدَّ النبي صلى الله عليه وسلم من بينها: «**وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ**»[١]، أي الفرار من القتال عند ملاقاة العدو في غير تحيُّز لجماعة أخرى من المؤمنين أو ضرورة أصلح للقتال.

بل لا يجوز - كأصل عام - التخلي عن الدور والوظيفة ولو كان في لحظته غير مُجدٍ فيما يبدو للمُكلَّف، والقرآن يُخلِّد لنا مشهدًا في واحدة من أعظم قصص الأنبياء هي قصة إبراهيم عليه السلام، فيقول: { **وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ** } [سورة الحج: الآية ٢٧]، فلم يستغرب إبراهيم أمر الله تعالى بأن يُؤذِّن في الصحراء، لأن وظيفته أن يُؤذِّن في الناس لا أن يُسمِعَهم، عليه الأذان وعلى ربِّه البلاغ.

وتأمَّل كيف أن بعض الأقوام في زمن النبي صلى الله عليه وسلم كان إسلامها بفضل رجلٍ واحد، مثل أبي ذر الغفاري وضِمَاد الأزدي وطُفَيل الدوسي، رضي الله عنهم جميعًا، بل في حديث إسلام ضِمَاد الأزدي لمَّا قال للنبي صلى الله عليه وسلم: "هاتِ يدَكَ أُبايِعْكَ"، فَبَايَعَهُ، فقال صلى الله عليه وسلم: «**وَعَلَى قَوْمِكَ**»، قال: "وَعَلَى قَوْمِي"[٢]! وطُفَيْلُ بن عمرو الدَّوْسيُّ رضي الله عنه لما تمنَّع بعض قومه في البداية؛ أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ دَوْسًا عَصَتْ وَأَبَتْ، فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهَا، فَقَالَ النَّاسُ: هَلَكَتْ دَوْسٌ، فقَالَ النبي صلى الله عليه وسلم: «**اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا**

(١) صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه (٢٧٦٦/ كتاب الوصايا)، ومسلم في صحيحه (٨٩/ كتاب الإيمان)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم في صحيحه (٨٦٨/ كتاب الجمعة) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وَأْتِ بِهِمْ»[١].

لأجل ذلك، نجد الإسلام يُثمِّن أدوارًا ربما تبدو قليلة الأهمية، وفي غاية الضعف، لكنه يخلع عليها مفاهيم محمَّلة بمعنى التأثير الكبير، مثل: "**تكثير السَّواد**" وهو تقوية قلوب المباشرين بحضور غير المباشرين في صفهم وفي ظهورهم، وفيه أثر سعيد بن المُسيّب التابعي الجليل حين خَرَجَ إلى الجهاد وهو شيخ كبير، وقد ذهبتْ إحدى عَينيه، فقيل له: إنك عَلِيلٌ صاحبُ ضرر، فقال: "اسْتَنْفَرَ اللَّهُ الخَفِيفَ والثَّقِيلَ، فَإِنْ عَجَزْتُ عَنِ الجِهادِ؛ كَثَّرْتُ السَّوادَ، وحَفِظْتُ المَتاعَ"، فهو وإن لم يُجاهد بقتالٍ لكن حضوره يقوِّي قلوب المُقاتلين ويوقع المَهابة في قلوب عدوهم، ومثل ذلك يُقال في الدعوة وفي مجالس العلم وفي العبادات وفي سائر الطاعات، لكنه يتأكد في قضايا المسلمين الكبرى وأمورهم العظيمة الجسيمة، التي هي حدٌّ فاصل بين الإسلام والكفر والإيمان والنفاق، فهنا يتوجب تكثير السواد، فإن المرءَ قليلٌ بنفسه، كثيرٌ بإخوانِه المخلصين الصادقين، وكلما كان في خضم هذه الحياة الصعبة أكثرَ إخوانًا؛ كان بذلك أقوى على نيل حريته وحفظ كرامته وتحقيق غايته.

ويلزم من ذلك الضد، فمن كثَّرَ سَواد قوم فعليه وزرهم إن فعلوا شرًّا، كما كان له مثل أجرهم إن فعلوا خيرًا، لأن كل إعزازٍ لحق إذلالٌ لباطل، وكل إعلاءٍ لباطل انتقاصٌ لحق، لكن القرآنَ يُسمي التكثير في الشر بالـ "**مُظاهرة**" ومنه قوله تعالى: { **قَالَ رَبِّ بِمَا**

(١) صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه (٢٩٣٧/ كتاب الجهاد والسِّيَر)، ومسلم في صحيحه (١٧٩٥/ كتاب فضائل الصحابة)، من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ } [سورة القصص: الآية ١٧]، وقوله: { **فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ** } [سورة القصص: الآية ٨٦].

ولذلك قال تعالى: { **وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ** } [سورة آل عمران: الآية ١٦٧] فالقتال معروف، لكن ماذا عن { **أَوِ ادْفَعُوا** }؟!

يقول السُّديّ: "أي ادفعوا عنا العدوَّ بتكثير سوادِنا إن لم تقاتلوا معنا"(١)، وهذا من أدق وجوه تفسيرها، لأن الكثرة أحد أسباب الهيبة، وفي المثل "الكثرة تغلبُ الشجاعة"، لذلك وصف الله تعالى هؤلاء المتخاذلين بعدها بقوله: { **هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ** }، لأن تقليل سَواد المسلمين معناه تكثير سَواد أعدائهم، ولذلك حين خاطب الله عزَّ وجلَّ نبيه صلى الله عليه وسلم بشأن مسجد ضِرار قال: { **لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا** } [سورة التوبة: الآية ١٠٨]، وكذلك قال له عن المنافقين في زمانه: { **وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا** } [سورة التوبة: الآية ٨٤]، فـ { **أَبَدًا** } هذه لتأكيد النهي من جهة، ولإفادة الأمر بتخذيلهم من جهة أخرى، فالآية وإن وردت في سياق النهي إلا أنها استبطنت أمرًا بتخذيل أهل الباطل، وفي الأثر عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "جاهدوا المُنافقين، فإن لم تستطيعوا إلا أن تكفهِرُّوا في وجوههم فافعلوا"(٢)، أي أدنى ما تفعلوه معهم أن

---

(١) علي بن أحمد الواحدي: الوسيط في تفسير القرآن المجيد، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية (بيروت)، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م، ج ١ ص ٥١٨.

(٢) رواه عبد الله بن المبارك في الزهد والرقائق (١/ ٤٨٥).

تُقابلوهم بالكراهية وتُظهروها لهم.

ومن جنس تكثير السَوَاد؛ "**المُراغمة**" وهي إغاظة العدو بالتزام الحق والثبات عليه، من "رَغِم أنف" يعني ذلَّه وألصق وجهه بالتراب، وفيها قول الله عزَّ وجلَّ: { **وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ** } [سورة التوبة: الآية ١٢٠]، فقوله: { **وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا** } وهو الدوس بالأرجل، والمقصود منه الإمعان في مراغمتهم، لذلك قال: { **وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا** }، أي كائنًا ما كان صغيرًا أو كبيرًا، فكل غيظ لأعداء الله مهما كان قدره؛ استعمالٌ إلهي للمؤمن وعمل صالح لا يضيع عند الله عزَّ وجلَّ. وتأمَّل كيف جعل النبي صلى الله عليه وسلم من الصفة الذميمة؛ خُلقًا كريمًا وعبادة لله عزَّ وجلَّ إذا كانت في سبيل الله ولغيظ عدوه، من ذلك حين رأى أبا دُجانة رضي الله عنه يتبختر عند القتال، فقال: «**هذه مِشيةٌ يُبغضها الله ورسوله، إلا في هذا الموضع**»!

فكلُ ثباتٍ للمؤمن وكل قوةٍ وكل عزمٍ وصبرٍ وانفعالٍ لدينه وأوليائه، بل كلُ ما يتركه من سيرةٍ وأثر؛ مُراغمةٌ لعدوه، وكان ابن القيم يُسميها "عبودية المُراغمَة" ويقول: "فمن تعبَّدَ الله بمُراغمةِ عدوِّه؛ فقد أخذَ من الصِّدِّيقيَّة بسهمٍ وافر"[١]، فالسر في تثمين هذا الدور أنه يُزكِّي داعي المقاومة في المؤمن ويحفظ جذوة الولاء والبراء في نفسه، فيظل متَّقدًا في قلبه لا يفتُر ولا يخمَد ولا يتضاءل.

وعلى الجانب الآخر، فهذا الغيظ بقدر ما يُفيد الحقّ؛ يضر الباطل وينال منه، لأن الباطل واهٍ هشّ لا رسوخ فيه، فكل انفعال

(١) محمد بن أبي بكر قيم الجوزية: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، مرجع سابق، ج ١ ص ٢٤١.

للمؤمن يُقلقه ويُؤرق مضجعه، ألم يكن نبي الله موسى عليه السلام وأتباعه قلة مستضعفة في وسط فرعون وجنوده، ومع ذلك قال فرعون لقومه: { **إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ** } [سورة الشعراء: الآيات ٥٤: ٥٦]؟! فإظهار المخالفة لدينهم إغاظة لهم، يضيق بها الصدر ولا يُؤمن معها الغائلة.

فهذه المفاهيم: تكثير السَّواد، والمُراغمة، وجُهد المُقلّ، وغيظ العدو؛ التي لا يتفطن لها إلا قليل، ولا تُفرَد لها كتب أو حتى صفحات في كتب أو دروس وخطب؛ مسارات فعل تملأ فجوة كبيرة ومناطق رمادية واسعة بين "الاستطاعة" الواضحة و "العجز" الواضح، وتؤكد قيمة دور المسلم وأهمية وجوده في هذا العالم.

وتأمَّل كيف أن ذِكْر "النفير" كله في القرآن، يتعلق بالجهاد وفي سورة التوبة إلا موضعًا واحدًا في سورة النساء، وفي خضم الحث والحض عليه يتغير مجال الحث والحض عليه من "الجهاد" إلى "العلم"، في قول الله تعالى: { **وما كانَ المُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِنهم طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا في الدِّينِ ولِيُنْذِرُوا قَوْمَهم إذا رَجَعُوا إلَيْهِمْ لَعَلَّهم يَحْذَرُونَ** } [سورة التوبة: الآية ١٢٢]، فاستَعمَل تعبير "النفير" ذاته، وفيه دلالة على أن العلم أيضًا قوة وضرورة، فالجهاد والعلم ليسا غاية، إنما هما وسيلة لغاية كُبرى هي تعبيد الناس لرب العالمين وإقامة حُكم الله عزَّ وجلَّ في الأرض.

اليوم الذي يُحال فيه بيننا وبين الجهاد والرِّباط؛ يومُ إعداد واستعداد، نكتسب ونُكسب، نكتسب ما استطعنا من قوة، ونُكسب من يُحيطون بنا من المؤمنين ما ملكنا من قوة، وهذا من آكد الواجبات، فالأمهات - مثلًا - يملكن اليوم أقوى سلاح في

المعركة غدًا، وهو "النشء"، فليسألن أنفسهن ماذا فعلن ليُعدّن أولادهن لجولة أخرى في المعركة؟ قبل أن يتعللن بأنهن عاجزات حقًّا! ومن باب أولى الرجال، آباءً كانوا أو فتيةً.

فالاستعداد نوع من الاستطاعة، وترْكه نوع من التقصير، ومن ملك الاستعداد لا يُقال عنه عاجز. كان أبو الدَّرْداء يقول: "إِنَّمَا تُقَاتِلُونَ بِأَعْمَالِكُمْ"، ومن فقه البخاري أنه حين رَوى هذا الأثر في صحيحه بوَّبَ له بعنوان: "باب: عَمَلٌ صالحٌ قبل القِتال"، ثم أورد حديثًا عظيمًا بديعًا أن رجلًا مُقنَّعًا بالحَدِيد جاء للنبي صلى الله عليه وسلم قبل القتال في غزوة مباشرةً يُريد الإسلام، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم: "يا رَسولَ اللَّهِ، أُقَاتِلُ أَوْ أُسْلِمُ؟" يعني أُقاتِل معك أولًا ثم أُسلِمُ بعد انتهاء القتال، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «**أَسْلِمْ ثُمَّ قَاتِلْ**»، فأسْلَمَ الرجل، ثم قاتل فَقُتِل، فسأل عنه النبي صلى الله عليه وسلم بعد القتال، فإذا هو قد قُتِل، فقال صلى الله عليه وسلم: «**عَمِلَ قَلِيلًا، وأُجِرَ كَثِيرًا**»[1]! وعبقرية البخاري هنا في أنه لم يفهم ما قد يتبادر للذهن لأول وهلة من أن الله يُثيب الثواب الجزيل على العمل اليسير، وهذا حقٌّ وواضح، لكن المعنى الأبلغ والأعمق؛ أن العمل الذي تستطيعه بادِرْ به، فربما وفَّقك للعمل الذي تؤجَر به الأجر العظيم الكبير!

وهو معنى حديث ظهور المهدي في آخر الزمان، الذي فيه: «**يُصْلِحُهُ اللَّهُ فِي لَيْلَةٍ**»[2]، فليس المراد أن يكون فاسدًا ثم يصبح

(١) صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه (٢٨٠٨/ كتاب الجهاد والسِّيَر) من حديث البَراء بن عازب رضي الله عنهما.

(٢) حسن بمجموع طرقه: أخرجه ماجة في سننه (٤٠٨٥/ كتاب الفتن)، وأحمد في

صالحًا فجأةً بغير عمل، أو جاهلًا ويصير عالمًا بغير تعلُّم، إنما المعنى أن الله عزَّ وجلَّ يُهيئ له أسباب نصره، ويرفع قدره ليسوسَ الأُمة ويُؤلِّف قلوب الناس حوله ليقوم بمَهمته الكبرى، بما استعد به من عمل وصلاح، بعد أن كان مجهولًا بين الناس لا يُلتفت إليه، ولذلك قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم: «**يَمْلَؤُهَا عَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا**»[١].

وكل إضعافٍ لعدو الله؛ تقويةٌ لولي الله، لذلك كان من جملة "**المقاطعة**" التي يملكها كل مسلم: "الثقافية"؛ أيديولوجيات العدو وتصوراته، أسلوبه ومنطلقاته وأعياده وذوقه وفلسفة نظره للحياة، ما يعتصم به ويلوذ وما يُعلِّق عليه آماله؛ ثقافة الغرب سلاحه الذي لطالما أضعفونا به!

ومن عَرَفَ عدوَّه؛ كيف يستسيغ أن يُعطي له "قرشًا" واحدًا؟! فالجهاد بالمال آكد في الإضعاف، ولْنلاحظ كيف أن الجهاد دائمًا ما يُذْكَر في القرآن بالمال قبل النفس: {**وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ**}، {**وجاهَدُوا بِأمْوالِهِمْ وأنْفُسِهِمْ**}، ومن المعلوم أن الجهاد بالنفس أعظم من الجهاد بالمال بلا شك! لكنه قدَّم الجهاد بالمال لئلا يَتوهَّم السامع أنه إذا لم يكن قادرًا على الجهاد بالنفس؛ لا يستطيع أن يبذل للإسلام والمسلمين.

مسنده (٢/ ٧٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٥١٣)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣/ ١٧٧)، وغيرهم من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في سننه (٤٢٨٣/ كتاب المَهدي)، وأحمد في مسنده (٢/ ١٦٣)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٥١٣)، وغيرهم من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وله طرق أخرى من روايات عبد الله بن مسعود وأبي سعيد الخُدري وابن عباس رضي الله عنهم، غير أن حديث علي رضي الله عنه أصح منها جميعًا.

فالمؤمن لا يستصغر بذلًا، فإنَّ الذي يستصغر الصغير يوشك أن يجمع إليه صغيرًا آخرًا، حتى يكثُر الاستصغار، فيألف الترك ويستخفّ به، فلا يُبالي أيّ بذلٍ ترك، صغيرٍ أم جليلٍ؟ لذلك في الحديث يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا**»[١]، وفي الأثر عن عمارة بن خزيمة بن ثابت قال: "سمعت عمر بن الخطاب يقول لأبي: ما يمنعك أن تغرس أرضك؟ فقال له أبي: أنا شيخ كبير أموت غدًا! فقال له عمر: أعزم عليك لتغرسنها، فلقد رأيتُ عمر بن الخطاب يغرسها بيده مع أبي"! وعن داود بن أبى داود قال: قال لي عبد الله بن سلام: "إن سمعتَ بالدجال قد خرج وأنت على وَدِيَّة (فسيلة صغيرة) تغرسها، فلا تعجل أن تصلحها؛ فإن للناس بعد ذلك عيشًا"!

فلم يسألوا أنفسهم: متى سأغرسها؟ وما الفائدة؟ ومتى تثمر؟ ومن سيتعهدها بالعناية؟ وكيف؟! إنما هذا من غبار المادية والطبيعية، لأن غايات المؤمن في الحياة وحكمة خلقه التي يُؤمن بها، غير غايات الماديين وعِلل الطبيعيين، المؤمن مطالب بالغرس لا الثمرة، والبذل لا النتيجة، والسعي لا الوصول، وعلى قدر ما يغرس ويبذل ويسعى على قدر ما يُعظم له في الأجر ويحصل من الثمرة والنتيجة والوصول.

فكل العقبات وكل المُيئسات لا قيمة لها ولا حساب إذا أتت

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في مسنده (٢٠/ ٢٥١)، والبخاري في الأدب المفرد (١٦٨)، وعبدُ بن حُميد في مسنده (٣٦٦)، وغيرهم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

أمام العمل، وهذا جوهر اختلاف "حركة الإنسان في الحياة" في الفلسفة الإسلامية عن المادية، فتتحقق بذلك سُنة الله تعالى: { **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** } [سورة الرعد: الآية ١١]، فإذا يئس المسلم من ثمرة الجهد أن يحصدها؛ فغير مأذون له بترك العمل لعل الغرس ينتفع به من بعده، والأصل في أُمة الإسلام أن المؤمن يستنبت ما بذر سلفه، ويبذر فيستنبت خلفه، فكل استنبات سبقه زمن بذر، وكل بذر لزمه زمن استنبات، ومع ذلك فالنبي صلى الله عليه وسلم يخبرنا بوضوح أن الغرس لا يشترط الاستنبات، فالغرس واجب وإن لم ينتفع به أحد، وهذا معنى قوله: «**فَلْيَغْرِسْهَا**»، وهذا أمر شرعي وجيه جدًّا، لأن الإنبات رهن الأقدار والأقدار لا يملكها الإنسان ولا يُسيطر عليها، لذلك في بعض وجوه تفسير قوله تعالى: { **فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا * فاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلّا اللَّهُ واسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ولِلْمُؤْمِنِينَ والمُؤْمِناتِ** } [سورة محمد: الآيتان ١٨: ١٩] قيل: "لا يمنعكم قرب قيام الساعة من العمل والسعي".

وثمة أمورٌ تُعين على البذل وتحمُّل الجهاد ومشاقِّ الطريق، هذه الأمور مُبتدؤها ترويض النفس بالتربية على الإنفاق وبذل الغالي والنفيس في سبيل قضيةٍ تستحقُّ ذلك، ثم تخليص النفوس من الشُّح والهوى وحظ النفس، والتوقف والمراجعة وتجديد النية والاحتساب عند كل خطوة، ثم الإيمان بأنه مهما طال الليل وتعقَّدت القضية؛ فإنه لا بُدَّ للصبح أن يطلع وللقضية أن تُحَل، وهذا الإيمان إنما يتولد بالعلم والمعرفة والتصور؛ فالإيمانُ بالشيء فرعٌ عن تصوره.

وأمر آخر؛ أن نُؤمن بأن التاريخَ لن ينسى صبرنا وجَلَدنا في سبيل قضية الحقّ، وكلُّ هذا يحتاج إلى تضحيات باهظة جدًّا،

لكنها رخيصة في سبيل هذه القضية، ولا شك في أن الإخلاص واستحضار التقوى والتجرد لله تبارك وتعالى وسؤاله التوفيق يُعين على بذل التضحيات وتحمُّل المشاقِّ وتجاوز المَهالك.

وأمور أُخَر؛ قناعة القلب وغنى النفس واليقين والصبر ومعرفة حقيقة الابتلاء بالنعم، وأن الله تعالى مستحقٌّ على كلِّ نعمةٍ شُكرًا يليق بها؛ فالصحةُ لها شكر يُناسبها، وكذلك العلم والوقت والجاه والقوة والذكاء والمال، وأن كُلًّا منها منحةٌ وعطيَّةٌ من الله عزَّ وجلَّ لينظرَ الله أعمالنا، ويَظهر الشاكرُ مِن الكَفور، وأن الله عزَّ وجلَّ يبارك فيما بقي؛ عملًا بقاعدة "**العِوض**" المشهورة: "مَن ترَك شيئًا لله عوَّضه اللهُ خيرًا منه"، مصداق حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئًا اتِّقَاءَ اللَّهِ، إِلَّا أَعْطَاكَ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ**»، وفي الأثر عن شُريح القاضي: "فإنك لن تجِدَ فقْدَ شيءٍ تركتَه ابتغاءَ وجهِ الله"، وتحقيقُ ذلك بالدليل المادي التاريخي أن اللهَ بارَكَ في أوقاتِ العلماء الربانيين؛ ففعلوا ما يصعب تصورُه في الحسابات المادية، وباركَ الله تعالى في أقوالهم وأفعالهم وكُتبهم؛ فبلغَت مبلغًا من النفع والأثر لم يكن ليَخطر لهم ببالٍ، وقد كانوا عظيمي التضحية بأوقاتهم وعلومهم.

فالعِوض في الوعد الإلهي؛ لا ينحصر كله في البدل المادي والمكسب المحسوس، بل ربما أخيَر من ذلك وأخيَر مما يتوقعونه، وأزكى لهم وأنفَع وأجزَل وأوفَى، ولذلك في بعض ألفاظ الحديث: «**مَن تركَ شيئًا لله، لم يَجِدْ فَقْدَه**»، فكأن لُطف الترك يُنسي مرارة الفقد، وهذا من جملة الخيرية في العِوض، فالدعاء خيرٌ، ووُد المؤمنين خيرٌ، والتوفيق خيرٌ، والبصيرة خيرٌ، والاستعمال خيرٌ، وخيرُ الآخرة لا شرَّ بعده ولا خيرَ أبقى منه.

لذلك أخفى النبي صلى الله عليه وسلم طبيعة هذا العِوض، ولم يُبيِّن علاقته بما تركه المؤمن، بل اكتفى بهذا الوصف الجامع: «**أَعْطَاكَ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ**»، وكم شاهدتُ - مرارًا وتكرارًا - أن من ناصَر الحق ولم يترُك شيئًا من دينه إرادةَ استصلاح دُنياه؛ ألقى الله عزَّ وجلَّ وُدَّه في قلوب الناس، ولَحِقَه من الدعاء ما الله وحده به عليم، وطار ذِكْرُه الحَسَن شرقًا وغربًا، وتلك عاجل بُشرى المؤمن، وهو من وجوه المُدافعة التي أخبر عنها القرآن: { **وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ** } [سورة الحج: الآية ٤٠]، فرفع ذِكر الصالحين الثابتين والعاملين بين الناس من المدافعة العجيبة التي ربما لا ينتبه لها الناس، ونعمة ربما لا يقدِّرونها، إذ كيف لنفوسنا أن تُشفى وقلوبنا أن تهدأ ويتجدد فينا الإيمان دون أن نُعاين ثبات الصابرين وبذل المجاهدين؟!

فسُنَّة الله عزَّ وجلَّ أنه كلما زاد الفساد زادت المُدافعة، كأنه ارتباطٌ شرطي تُعرف به العناية الإلهية، قال البقاعي: "لمَّا أراد بأكثر الناس الفسادَ؛ نصبَ لهم من الأضدادِ، ما يُخفِّف كثيرًا من العناد"[1]، فالفاجر يُفسد والمؤمن يُصلح، حركة دائبة وسُنة جارية، فبالمؤمن يكُفُّ الله عزَّ وجلَّ فساد النفوس ويكُفُّ يأس القلوب.

وكما أن هناك أمورًا تُعين على بذل التضحيات، فثمة أمورٌ تبعث على التخاذل، أساسها: ضعفُ الإيمان بالقضية، وتزعزعُ القَناعة والثقة بالنفس وبسلامة الطريق الذي يسير فيه، والرُّكونُ إلى الدنيا وحُبُّها والتعلق بشوائبها ولذاتها؛ بحيث يطلبها المتخاذلُ

---

(١) إبراهيم بن عمر البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مرجع سابق، ج ١٣ ص ٥٨.

لِذاتِها وعينِها، ويسعى لها سعيًا حثيثًا بلا نية صالحة، وقد ينشغل بالتضحية من أجلها.

ومن الأمور التي تبعث على التخاذل أيضًا؛ إيثارُ الدَّعَة والراحة، وطولُ الأمل، والجُبنُ والبخلُ والطمعُ والعجزُ والكسلُ، والشعورُ بالأَثَرةِ، وحبُّ النفس، وانعدام الجدية، ودُنُوُّ الهمة، والانخداع بالواقع أو الجهل به، وبعضُ هذه الأسباب، بل وقليلٌ منها؛ كافٍ في حدِّ ذاتِه في تحطيم النفس وتثبيط الهمة عن البذل والتضحية، فما بالنا باجتماعها أو اجتماع أكثرها؟!

الفئة الغالبة

يَستعظمُ بعض الناس ما نمر به من محنة، فيظن أنه لا سبيل لتبدُّل الأحوال أو تغيُّر الواقع في زمن قريب، وهذا محض وهم، فقد مضت هذه الأُمة فيما مضت إليه في تاريخها الطويل عبر مئات المِحَن والنكبات التي قد تكفي إحداها لمحوها من الوجود، لكن هذا لم يحدث، لا لضعف الأُمم التي غالبتها، بل بفضل رجال ونساء لم يذوبوا مع من ذاب في أزمنة الغلبة والانكسار، ولم يتلاشوا مع من تلاشى بلوثة اليأس والإحباط والانهيار.

نحن أُمةٌ تحمل جينات التحرر والانتصار، نحن أُمة قابلة لاستعادة هيبتها فوق كل أرض وتحت كل سماء وفي أي زمان، وهو ما يُرعب أعداءنا مهما كان حالنا في ضعف وهوان.

ليس هذا هروبًا من واقع كما قد يُتوهم، ولا ضربًا بالغيب، ولا تضليلًا للعقول، ولا متاجرةً بالعواطف، إنما هو تأكيدٌ على سُنن الله في هذه الأُمة، فجذورها مستعصيةٌ على الاقتلاع، ولو كان ذلك من السهولة بمكان لحدث من قبلُ مرات ومرات!

وهل نسينا ما فعله المغول في بلاد المسلمين حتى استحالت بغداد من آنس المدن إلى خرابةٍ كبيرة كما يقول ابن كثير، إذ قُتل فيها وحدها ما يقرب من مليونَي نفس؟! هل نسينا كيف نُهبت أموالُها؟! وكيف حُرقت كُتبها؟! وكيف خُرِّبت مساجدها ومدارسها ومكتباتها؟!

وهل نسينا كيف قَتل الصليبيون في القُدس في جُمعةٍ واحدة ما يربو على سبعين ألفًا، فيهم الأئمة والعُلماء والزُّهاد؟! هل نسينا كيف كان يُشنَق الكثير من الشبان والشيوخ بحبلٍ واحد طلبًا للسرعة في التخلص منهم؟! وكيف كانت الدماء تجري كالأنهار في الطُّرق؟! كيف كانت الأسيرات يُبعن في أسواق "أنطاكية"؟! وكيف غنِمت أوروبا من الذهب والفضة وخيرات بلادنا ما لا يقعُ عليه إحصاء؟!

فهل زالت الأُمةُ من الوجود بهذه النكبات؟!

أبدًا، بل انتصاراتها كانت أعظم من انكساراتها، وبعض الأُمم التي نازعتها زالت بأهون من نكباتها، وبقيت أُمتُنا رغم كل مصابها! لأن الله تعالى تكفَّل حفظها وتولَّى نصرها إذا تهيأ منها رجال لهذه المَهمة، رجال يُصلحهم الله في يوم وليلة، وهذا لا يحتاج لسنين، بل قد يحدث بين عشيةٍ وضُحاها والله على كل شيء قدير.

المغول دخلوا بغداد وفعلوا بها من الجرائم ما فعلوا، ولم يكن يخطر في بال أحد من الناس وقتها أنه يُمكن هزيمتهم، ومع ذلك هُزموا وطُردوا شر طَردة بعد أقل من سنتين من احتلالهم بلاد المسلمين، بل وكان هذا أول مسمار في نعش إمبراطوريتهم، فبعد سنين يسيرة تفككت إمبراطورية المغول الكافرة كليةً!

والفرنسيون احتلوا الجزائر أكثر من مئة وثلاثين سنة، حتى تفرنس كثير من الجزائريين وظنوا أن الفرنسيين لا يُغلبون ولا يُخرجون، لكنهم هُزموا وأُخرجوا وطُردوا شر طردة على يد أقل من ألفي مقاتل، بعدما استُشهد في سبيل ذلك أكثر من مليون شهيد!

وإن العبرة في هذه الحوادث التاريخية لم تكن بانهيار الطغاة

وزوال الظلم والاستبداد فجأة، فحسب؛ بل أكثر في حدوث التحول والتغيير على عكس المتوقع، فالتقدير الدنيوي البحت لما حدث في حروب التتار والصليبين هو استحالة انتصار المسلمين، ومع ذلك انتصروا بقُدرات أقل، بل زالت بعض ممالكهم من الوجود وبقي المسلمون.

والأُمم القوية لا ما تصف نفسها بذلك، بل التي تفرض واقعًا قويًّا، والأمم الضعيفة تنتج واقعًا ضعيفًا، الولايات المتحدة هي راعية الإرهاب الأولى في العالم، ومع ذلك ينظرون لها بوصفها "شرطي العالم"، وينظرون لأُمتها كأُمة حُرة راعية للحُرية والديمقراطية، لماذا؟!

لأن القوة في يدها، لأنها هي التي تُسيطر على منابر الإعلام وتُسيطر على المؤسسات العلمية وتتحكم في الاقتصاد العالمي!

حين نفرض قوتنا سيتبعنا الناس لا بُد، لأن أكثر الناس أتباع، بالطبع ليس القصد هنا احتقار الناس ولا إهانتهم، بل هذه سيكولوجية الشعوب، الشعوب لا تقود، إنما تُقاد، والذين يقودون دومًا قلة لكن بيدهم قوة.

لن يغير واقع الحال ما تدَّعي أو تزعم عن نفسك، أما واقعك فهو الذي يفرض تصوُّر الناس عنك، إذا كنت ضعيفًا تتمرد على القوي فقطعًا ستكون إرهابيًّا وخارجيًّا وينعتونك بكل مذمة ونقص، وإذا كنت قويًّا تسحق الضعفاء فستصبح البطل المُنقذ قاهر الإرهاب وحامي الحريات والحُرمات!

وكل ما مكَّن الفرد أو الجماعة من الغلبة؛ قوة، وكل ما سَهل التغلب عليهم؛ ضعف، الإيمان قوة والكفر ضعف، العلم قوة

والجهل ضعف، المال قوة والفقر ضعف، الكلمة قوة والسكوت ضعف، الاجتماع قوة والتفرق ضعف، الحاضر قوة والماضي ضعف، الأمل قوة واليأس ضعف.

أقول ذلك، لأن استحضار هذه المعاني هو الحد الأدنى لقيام كلِّ مُسلم بدوره في تغيير واقع الأُمةِ ومقاومةِ كسرها وقهرها.

إن عدو الله لا يضر ولي الله أبدًا، مهما كان ومهما فعل، وهذا معنى قول الله عزَّ وجلَّ: { **لَن يَضُرُّوكُم إِلَّا أَذًى** } [سورة آل عمران: الآية ١١١]، وكيف ذلك، ونحن نشاهد الشهداء من المسلمين كل يوم؟

لأننا لا نُدرك حقيقة: { **بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** } [سورة آل عمران: الآية ١٦٩]، فحياتهم في الجنة محقَّقة يتنعمون فيها منذ لحظة استشهادهم يقينًا، وإذا تدبرنا التعبير القرآني: { **إِلَّا أَذًى** }، نجد فيه بلاغة عجيبة، يوضح الحَرالِّيّ معناه بقوله: "الضُّر: إيلام الجسم وما يتْبَعُهُ من الحواس، والأذى: إيلام النفس وما يتْبَعُها من الأحوال"[١]، كأنه يقول: إن الذي يجده المؤمن هو ضرر متوهَّم، وما الضرر إلا الحال التي يستشعرها بالضرر، وليس هو كذلك، فهذا الألم الذي يُصيب نفسه هو المقصود بلفظة { **أَذًى** }، لأن أمر المؤمن كله خير، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ**»[٢].

وهذا معنى متكرر في نصوص الوحيين، منه قوله تعالى: { **يَا**

(١) إبراهيم بن عمر البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مرجع سابق، ج ٥ ص ٢٧.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم في صحيحه (٢٩٩٩/ كتاب الزهد والرَّقائق) من حديث صُهيب رضي الله عنه.

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ } [سورة المائدة: الآية ١٠٥]، وقوله صلى الله عليه وسلم: بين «**لاَ يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلاَ مَنْ خَالَفَهُمْ**»[١]، فمن اعتصم بالله؛ لا تنكسر شوكته أبدًا، لأن أمره كله خير وتصاريفه كلها هُدًى ورحمة.

فالشهادة ليست نهاية المؤمن، بل هي على الحقيقة البداية لحياته الأبدية، يُلخص ذلك قول الله تعالى: { **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** } [سورة التوبة: الآية ١١١]، فجَعَلَ الشهادة في القتال بداية لا نهاية، وسبيل ثراء لا فناء.

فالحقيقة أن المؤمن لا يُهزم أبدًا، وهو معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**هَلْ أَنْتُمْ إِلَّا بَيْنَ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ، بَيْنَ أَنْ يَسْتَشْهِدَكُمُ اللَّهُ، أَوْ يُظْهِرَكُمْ**»، مصداق قول الله عزَّ وجلَّ: { **قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ** } [سورة التوبة: الآية ٥٢]، فلا يوجد خيار ثالث، لا يوجد خيار اسمه هزيمة، لأن الهزيمة ما هي؟

بقاء في الدنيا مع الخِزي والذُّلّ والهَوان، وهذا ليس من خيارات المسلم، فالنصر بالنسبة للمؤمن متعدد الأشكال، فثمة النصر الذي يعرفه عامة الناس الذي هو ضد الهزيمة، وثمة نصر من نوع آخر هو "**الشهادة**"، بل هذا الأخير أجلُّ للمؤمن وأنفعُ له، فلئن

---

(١) صحيح: سبق تخريجه.

كان النصر الأول أنفع لجماعة المؤمنين، فالنوع الثاني من النصر أنفع لأفرادهم، لذلك كان النداء الرباني للنبي صلى الله عليه وسلم: { **فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ** } [سورة النساء: الآية ٨٤].

لكن كثير من الناس لا يُدركون هذه الحقيقة لأنهم مغروسون في وحل المادية والمقاييس الدنيوية، فاستهوالهم الفقد منطقي حين يغيب عن أذهانهم معنى الاصطفاء.

فأصل من أصول الشريعة هو تقويضها للحسابات المادية، وسلب هيمنتها على النفوس، بحيث يكون ترتيبها في الأولوية دون الإيمان والأخلاق، فحين تكلم عن العُدة قال: { **كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً** } [سورة البقرة: الآية ٢٤٩]، وحين تكلم عن ماديات الدنيا قال: { **مَتَاعٌ قَلِيلٌ** } [سورة آل عمران: الآية ١٧٩]، وحين تكلم عن الشهداء قال: { **وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ** } [سورة البقرة: الآية ١٥٤]، وحين تكلم عن استنقاذ النفس المؤمنة قال: { **وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا** } [سورة المائدة: الآية ٣٢].

وهذا السلب للهيمنة المادية، ليس بالمعنى السلبي، أي إبطالها وإلغاؤها؛ بل سلب إيجابي يهدف إلى إعادة توجيهها لخدمة العقيدة والتزكية، فالمقاييس في الإسلام مختلفة، لأنه عقيدة وإيمان استَحالت إلى سلوكٍ وفعل، فالشريعة أتت بحفظ النفس والعِرض والنسل والمال، لكنها قدَّمت على ذلك كله: حفظ الدين، لأن به تُحفظ النفوس والأعراض والأموال، وكيف يُحفظ الدين دون أن تُبذل دونه النفوس والأموال؟!

فالنصر ليس له شكل واحد ولا نهاية واحدة، بل مراغمة عدو

الله نصر، غيظه نصر، كسر هيبته نصر، الثبات نصر، الفتح لدين الله نصر، جعل كلمة عدو الله السُّفلى وكلمة أولياء الله هي العُليا نصر، بل من عجيب ما سمَّاه القرآن نصرًا؛ صدقُ وعدِ الله للمؤمنين: { **وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ** } [سورة الروم: الآيتان ٤: ٥]، فالنصر لم يكن لهم، بل كان لعدوهم على عدو عدوهم، لكنه صَدق وعد الله لهم! لذلك من دقة المُحدِّثين أنهم سَمُّوا حديث: «**لاَ يَزَالُ طَائِفَةٌ من أمتي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ**»[١]؛ حديث "الطائفة المنصورة".

موازين المؤمن مختلفة، لو كان النصر نجاة وبقاء فقط؛ ما بايع الصحابة تحت الشجرة، وما خرج النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من مكة للمدينة، ولا خرجوا من المدينة لجزيرة العرب، ولا خرجوا من جزيرة العرب للفرس والروم! لو كان للعدد قيمة ما وصلنا هذا الدين.

فما أهون التمكين والتنكيل على الله تعالى؛ تمكين المؤمنين والتنكيل بالكافرين، إذا وُجدت التقوى، يقول الله تعالى: { **إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** } [سورة الأعراف: الآية ١٢٨]، فالأرض مُلكه، إذا كان خَلْقها وبَسْطها يسيرًا عليه؛ فتمكين عباده المؤمنين منها أيسر وأهون! يقول الطاهر بن عاشور: "من يشاءُ الله أن يُورثهم الأرض هم المُتقونَ، وتمليك الأرض لغيرهم إما عارضٌ وإما لاستواءِ أهل الأرض في عدم التقوى"[٢].

---

(١) صحيح: سبق تخريجه.

(٢) محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٩ ص ٦١.

وللشعراوي كلام دقيق في التدافع بين الحق والباطل مُلخصه أن التدافع "لو كان فعلًا بين حقٍّ لله وباطلٍ حَكم الله بأنه باطل؛ فلا بُدّ أن ينتهي بنُصرة الحق، وغالبًا لا تطول هذه المعركة؛ لأن الحق في ولاية الله، إنما الذي يطول؛ المعارك بين باطل وباطل، فليس أحدهما أولى بنُصرة الله من الآخَر، فيظل كل منهما يطحنُ في الآخر"[١]!

هذه الخُلاصة على قدر ما تحمل من صدمة للعاجزين؛ تحمل بشارة عظيمة للعاملين، الذين يحملون الحق وحدهم ويُدافعون عنه وحدهم، بشارة للمجاهدين الثابتين والمُبتلين الصابرين، فليس القصد من الإشارة للمدى الزمني لمعركة الحق والباطل، فالأمر في النهاية في مشيئة الله عزَّ وجلَّ، لكن الشيخ يُريد أن يُشير إلى أن سُنة التدافع ماضية كما سنَّها الله عزَّ وجلَّ، لكننا لا ننتبه لها وربما ييأس البعض من تأخُّر النصر والتمكين، والأمر أننا لم نحقق المطلوب، فالسُّنن الإلهية ماضية إلى ما تمضي إليه، نحن بعيدون عنها ليس أكثر، والحقيقة المؤكدة أن الدين هو الضامن الوحيد للتمكين، فهو الذي يجمع الأُمة وهو الذي يُعيدها لعزتها.

هذا الكلام نفسه عبَّر عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه بكلمة بليغة، لو أن كلمة واحدة تصف واقعنا لكانت هي: "إنَّا كنا أذلَّ قوم فأعزنا اللهُ بالإسلام، فمهما نطلبُ العزةَ بغير ما أعزنا اللهُ به؛ أذلناً الله"[٢].

---

(١) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي، مطابع أخبار اليوم (القاهرة)، ج ١٦ ص ٩٨٤٦.

(٢) صحيح موقوف: أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ١٣٠) موقوفًا على عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فنحن عجزة لأننا في الحقيقة إما نستهين بقوة هذا الدين، أو نستهين بقدرة المتأثرين به إذا كانوا كذلك حقًّا، فنغفل عن بصائر الإيمان لأننا لا نراها، ونحتقر الناس لأننا لا نَقدر على تحريكهم.

نحن نبحث بحثًا حثيثًا عن "التمكين" ونقلق من ألا نُمكَّن، ومن أن يتأخر التمكين، لكن لا نكترث بأهل التمكين، ولا بالغاية من التمكين! رغم أن الله عزَّ وجلَّ أخبرنا أن الذي يشاء أن يُورثهم الأرض هم المُتقونَ، فالمؤمن يُقاتل بدينه، قال تعالى: { **وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** } [سورة آل عمران: الآية ٥٥]، قال ابن عطية: "فوقهم بالحجة والبرهان وبالعِزة والغلبة"[١]، فإن المؤمن يواجه بالله تعالى لا بنفسه، ومن قاتل بالله لم يُغْلَب، قال القُشيْريّ: "المؤمن لا يزداد بنفسه ضعفًا إلّا ازداد بقلبه قوة"[٢]، أي لا يزيد ثباتًا وقوةً إلا إذا أدرك حقيقة نفسه، ولا يُدرك حقيقة نفسه إلا من أدرك حقيقة من يعبُد.

لذلك كان من علامات المؤمن في أزمنة الغُربة؛ أن يرى ما لا يراه غيره ويهتدي إلى ما لا يهتدي إليه غيره، في الحديث قال صلى الله عليه وسلم: «**الدَّجَّالُ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ، يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ**»[٣]، وكان حُذيفة بن اليمان رضي الله عنه يقول: "إن في

---

(١) عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، مرجع سابق، ج ١ ص ٤٤٥.

(٢) عبد الكريم بن هوازن القُشيْريّ: لطائف الإشارات، مرجع سابق، ج ١ ص ٦٣٧.

(٣) صحيح: أخرجه ومسلم في صحيحه (٢٩٣٤/ كتاب الفِتن وأشراط الساعة) من حديث حُذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وفيه زيادات، وله روايات أخرى عن عبد الله بن عمر وأنس بن مالك وأبي أُمامَة الباهِليّ وغيرهم رضي الله عنهم جميعًا.

قلب المؤمن سراجًا يُزهر"[١]، وقال أبو طالب المكي: "ظن المؤمن كهانة، أي كأنه سحرٌ من نفاذه وصحة وقوعه"[٢]، فالمؤمن يرى بالله، ومن كان كذلك حيَّر الخلائق في إيمانه وأفعاله، فغير المسلم يرى بأدواته ثم نفسه، فإذا خذَلتْه أدواته لم تُسعِفه نفسُه، والمؤمن يرى بالله ثم بأدواتِه، والذي هو "بالله" لا يَبْطش بيده ولا يمشي برجله ولا يُبصر بعينه، إنما يَبْطش بالله ويسعى بالله وينظر بالله، ومن كان كذلك لَزِمَه عونه ومدده وجبره وبركته، لا يضرُّه شيء لا في سكونه ولا في حركته، لا في حاله ولا في مآله، لا في رخائه ولا في بلائه.

فهذه العقول وهذه الجيوش وهذه الصناعات؛ كلها في غاية السفول عن رتبة الله تعالى، كلها في غاية الضآلة عن قدر الله سبحانه، هو المحيط بكل شيء عظمةً وكبرًا وعزة، فلا وليَّ يحمينا سواه، ولا نصيرَ يدفع عنا شيئًا يريده بنا سواه، ليس علينا إلا أن نعمل ونقاوم ونُجاهد في ظل أمره وطاعته، وهو الناصر يقينًا ومُغيِّر الحال لا بُدَّ، وما لنا من دون الله من ولي ولا نصير.

فالمسلم لا يُقاتل بحقّ الإسلام إلا غَلَب، قطعًا ويقينًا، قال الله تعالى: { **وإنْ يُقاتِلُوكم يُوَلُّوكُمُ الأدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ** } [سورة آل عمران: الآية ١١١]، وقال في مناصرة المنافقين واليهود لبعضهم: { **ولَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهم ولَئِنْ نَصَرُوهم لَيُوَلُّنَّ الأدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ** } [سورة الحشر: الآية ١٢]، وقوله: { **قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ**

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٦٨) بسند فيه ضعف بسيط، يصلح في فضائل الأعمال وله شواهد من الوحيين، غير أنه موقوف على حُذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

(٢) أبو طالب المكي: قوت القلوب، مرجع سابق، ج ١ ص ٢٠٨.

وتُحْشَرُونَ إلى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ } [سورة آل عمران: الآية ١٢]، ولذلك كان أصدقَ ما قال يهود؛ قولُ حُيَيٍّ بن أخطب: "مَنْ يَخْذُلُ اللَّهَ؛ يُخْذَلُ"، حين قال للنبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يُقتل في أعقاب غزوة الخندق: "يَا مُحَمَّدُ! وَاللَّهِ مَا لُمْتُ نَفْسِي فِي عَدَاوَتِكَ، وَلَكِنَّ مَنْ يَخْذُلِ اللَّهُ يُخْذَلُ"، وفيه قال الشاعر:

لعَمرُكَ مَا لامَ ابنُ أَخْطَبَ نَفْسه

ولـكنَّـهُ مَـنْ يَخْـذُلِ اللهَ يُخْـذَلِ

فمن قال الله عزَّ وجلَّ فيهم: { **وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا** } [سورة الأعراف: الآية ١٦٨] يستحيل أن يَهْنَأوا بدولة في بلاد المسلمين، فإن قيل: كيف ذلك ونحن نراهم مجتمعين في الورم الخبيث المسمى "إسرائيل" الجاثم على صدورنا في فلسطين؟!

فيُقال: إن اجتماع بعضهم في مكان لا يعني أنهم آمنون فيه، فهم وإن كان ظاهرهم أنهم مجتمعون فيه إلا أنهم غير آمنين به، وما أنظمة الإنذار والقبب والسراديب إلا مظاهر لهذا الاضطراب والقلق، كما أن اجتماع جماعة كبيرة منهم في قُطر لا يُغني عن تمزيق أُمتهم في باقي الأقطار، حتى لا يكاد يخلو قُطرٌ منهم، لا كمهاجرين، بل كأهل بلد، ورغم ذلك فهم لا يعيشون في هذا البلد إنما يعيشون في أحياء خاصة بهم معروفة مشهورة في أغلب البلدان، فلا هم مستقلون بقُطر ولا هم ذائبون في سائر الأقطار، فمصيرهم الشتات والتشرذم لا بُد، تتمةً لإذلالهم.

ومن المعاني الدقيقة التي يذكرها الشعراوي في تفسير هذه الآية، حول علة تقطيعهم في الأرض "أنهم لو كانوا متجمِّعين لعَمَّ فسادُهم في دائرتهم التي يعيشون فيها فقط، لكن الله يُريد أن تعرف

الدنيا كلها كيف هو فسادهم"[١].

لذلك، في آخر الزمان حين يصل قتال المسلمين لليهود أَوْجَه، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم، يصل الحال بالجمادات أن يسخِّرها الله عزَّ وجلَّ لنصرة المؤمنين، ففي صحيح البخاري من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**تُقَاتِلُكُمُ اليَهُودُ فَتُسَلَّطُونَ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ يَقُولُ الحَجَرُ: يَا مُسْلِمُ هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَائِي، فَاقْتُلْهُ**»[٢].

يقول الفخر الرازي في تفسير قول الله تعالى: { **وإنْ يُقاتِلُوكم يُوَلُّوكُمُ الأدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ** }: "فإن اليهود لم يُقاتِلوا إلا انهزموا، وما أقدموا على محاربةٍ وطلب رئاسةٍ إلا خُذِلوا، يبْقَوْنَ في الذِّلَّةِ والمهانَةِ أبدًا دائمًا"[٣].

فاليهود ليسوا ندًّا، بحال من الأحوال، لجماعة المؤمنين الحقّة المتماسكة التي تتبع الإسلام حقيقةً، وما يفعله الجهاد الفلسطيني في الصهاينة بكل عتادهم وأعوانهم خيرُ شاهد على ذلك، فما حقَّقه بصموده وثباته هو إعادة الهيبة للمؤمن وإحياء هويته التي تُعاند غطرسة الكفر وأهله، بعدما استخف بالمسلمين كلُّ من هبَّ ودبَّ!

فإذا كانت "غزة" – هذه البقعة الصغيرة من العالم – قد دوختهم

---

(١) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ج ٧ ص ٤٤٢٠.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه (٣٥٩٣/ كتاب المناقب)، ومسلم في صحيحه (٢٩٢١/ كتاب الفِتن وأشراط الساعة)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٣) محمد بن عمر بن الحسن الرازي: مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٨ ص ٣٢٧: ٣٢٨.

وحيرت العالم بقوتها وصلابتها، فما بالنا لو أن أُمة الإسلام مجتمعة صفًّا واحدًا وكلمة واحدة كيف يكون حالهم؟! لنا أن نتصور إذن؛ كيف حكم المسلمون العالم لأكثر من ألف سنة عندما كانوا أُمة واحدة في ظل خلافة واحدة؟! وكيف كانت شوكتهم وعزتهم؟! هذا هو الدرس العظيم في التاريخ الذي أخفوه عن المسلمين في مدارسهم.

إن من من بركات الإيمان المهيبة وآثاره العجيبة في المؤمن أنه ينزع الهيبة في نفسه من كل شيء سوى الله تعالى، ويقذف في قلوب غيره هيبته، وهو معنى قول الله تعالى: { **لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ** } [سورة الحشر: الآيتان ١٣: ١٤]، لأنهم يَهابونكم ويخافونكم، وشدّة تَحصُّنهم من رهبتهم منكم، إذ لا يقدرون على قتالكم إلا بهذه الصورة، قال الطاهر بن عاشور: "إن هاجمتموهم لا يبرزون إليكم ولكنهم يُدافعونكم في الحصون والمعاقل ومن وراء الأسوار، وهذا كناية عن مصيرهم إلى الهزيمة إذا ما حوربوا في عُقر دارهم"[١].

(١) محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢٨ ص ١٠٥.

التزكية بالابتلاء

إن الله تعالى جعل الدنيا دار ابتلاء وعمل، والآخرة دار حساب وجزاء، ولزم من ذلك أن يختلط الشر بالخير في الدنيا، ويتميزان في الآخرة، فأُمهل في الأولى إبليس وأُمهل الكافر وأُمهل الظالم، ولم يُمهلوا في الآخرة.

ثم إن الله عزَّ وجلَّ خلق الإنسان، وجعل كل حركة منه بقَدَر، لكنه عزَّ وجلَّ شاء أن تقع أقداره حين تقع؛ بإرادة الناس وعملهم ضمن مشيئة الله المطلقة، إذ خلق فيهم أسباب الخير وأسباب الشر، فإما مائلٌ إلى الهدى والخير، وإما مائلٌ إلى الضلال والشر.

ولأن الجنّة دار خير محض؛ كانت مئة درجة، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، واقتضت ألا يتساوى فيها أهلها، فكان بلاءُ المؤمن بالشر تارة والخير تارة، ليتعلق هو أو غيره أكثر بالله ويتعلق أكثر بالآخرة، وليظهر معدنه الحقيقي، من تجلُّدٍ وشُكر أو وهْنٍ وكُفر، فيتميز المخلصُ الصادق عن المُدَّعي الكاذب، كحال الذهب حين يُختبر بالنار، فيزداد لمعانًا بعد لمعان، أما الشوائبُ التي تختلط به فلا تزداد إلا احتراقًا بعد احتراق، ولأجل هذا التمييز خلق الله الخلق وأرسل رُسله وأنزل كتبه.

فالشر ليس مقصودًا لذاته، بل حقيقة الإيمان هي المقصود، فلا عجب أن نجد أكثر الناس ابتلاءً؛ الأنبياء، إذ هم صفوة خلق الله عزَّ وجلَّ، في الحديث: «**أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ**

فَالْأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الْعَبْدُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صُلْبًا، اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ، ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ، حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ، وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ»[1].

لذلك، لا زال أهل الإيمان في اختبارٍ بعد اختبار حتى يتبقى الخُلَّص من عباد الله، الذين تلهج ألسنتهم بـ { **مَتَى نَصْرُ اللَّهِ** } [سورة البقرة: الآية ٢١٤] الذي سأله قبلهم الأنبياء وأصحابهم، فهو سؤال الموقِن المتعلق، لا المرتاب الناقِم، فوحدهم المؤمنون هم الذين يتوقون لفرج الله، وحدهم من يتعلقون به ويوقنون فيه ويبذلون له.

فإن لم يجدوا الجزاء حاضرًا في دار الابتلاء والعمل، لاختلاط الخير فيها بالشر؛ وجدوه مدخرًا ولا بُد في دار الحساب والجزاء، وهذا هو الأصل الذي أُرسل به الأنبياء وبايعهم عليه أتباعهم، لذلك كانوا أشدّ الناس بلاءً!

ألم يكن في مقدور الله تعالى أن يُرقق قلوب العباد لأي نبي من أنبيائه بلا عناء ولا عَنَت؟!

---

(١) صحيح لغيره: أخرجه الترمذي في سننه (٢٣٩٨/ أبواب الزهد)، وابن ماجه في سننه (٤٠٢٣/ كتاب الفِتن)، وأحمد في مسنده (٣/ ٧٨)، والدارمي في سننه (٢٨٢٥/ كتاب الرِّقاق)، وغيرهم من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، بإسناد حسن، لكن معناه في أكثر من حديث صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم، منها ما أخرجه البخاري في صحيحه (٥٦٦٠/ كتاب المرضى)، ومسلم في صحيحه (٢٥٧١/ كتاب البر والصلة والآداب) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: دخلتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يُوعَكُ وعْكًا شديدًا، فقلتُ: إنك لتُوعَك وعْكًا شديدًا، فقال: «أَجَلْ، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ»، فقلتُ: ذلك أن لك أجرين؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَجَلْ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى، مَرَضٌ فَمَا سِوَاهُ، إِلَّا حَطَّ اللَّهُ لَهُ سَيِّئَاتِهِ، كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا».

ألم يكن في مقدوره أن يُلين قلوبهم لمحمد صلى الله عليه وسلم وهو أحب الناس عند الله عزَّ وجلَّ، فيستجيبوا له فورًا بدلًا من كل ما تعرَّض له من أذًى ومعارضة ونفاق؟!

بلى، لكنه لم يفعل!

فالصحابة الذين عُذبوا في مكة قبل الهجرة، ومنهم ياسر وسُمية وابنهما عمار، ماذا قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم لهم حين كان يمر عليهم وهم يُعذَّبون؟!

قال: «**صَبْرًا آلَ يَاسِرٍ، فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّةُ**»، فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يَعِدُهم التمكين ولا النصر، بل وَعَدَهم الجنة، لأن هذا هو الثمن الحقيقي للعبودية، والتمكين سُنة إلهية تتعلق بالأُمة لا أفرادها، فبعض المؤمنين قد يتحقق لهم التمكين، وبعضهم قد لا يتحقق له ولا يراه.

فإن من شأن الشِّدة؛ الضغط والضيق وطول المدة، لذلك قال الله تعالى لنبيه: { **لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ** } [سورة التوبة: الآية ٤٢]، أي المسافة التي تُقطع بمشقة، لأن النفس لا تُطيق الضيق، ولا تقوى على احتماله، ويُعييها مصابرته، فمن شأن طول البلاء أن يكشف معدنها ويفضح طبيعتها، فالشِّدة غِربال النفوس.

ومقتضى ذلك ألا يُدرك كل الناس الفرج والنصر والتمكين، فقد يتحقق التمكين والنصر وتَقَرُّ به عين المؤمن، وقد لا يراه في حياته، بل ينعم به من بعده، فأم المؤمنين خديجة رضي الله عنها وهي من هي، وقد قدَّمت ما قدَّمت للإسلام، بل ليس على الأرض من امرأة يومئذٍ أكرم على الله منها؛ لم تنعم مع المسلمين بالتمكين، لماذا؟!

لأن الدنيا ليست مستقرًّا للمؤمنين، المستقر الجنة، والجنة مضمونة بثمن واضح معلوم هو "فعل" المأمور و "الصبر" عليه، وهو جوهر فكرة السمع والطاعة، { **إِنِّي جَزَيْتُهُمُ اليَوْمَ بِما صَبَرُوا أَنَّهم هُمُ الفائِزُونَ** } [سورة المؤمنون: الآية ١١١]، لذلك حين أسلم الصديق رضي الله عنه، رجع إلى أهله يقول: "وجدتُ بضاعةً بَنسيئة، ما وقعتُ على بضاعةٍ قطُّ أنْفَس منها، قيل: ما هي؟ قال: لا إله إلا الله"!

إننا لن نُدرك هذه الحقيقة إلا حين نعلم أن الدنيا على قدرها في النفوس ومحبتها وتعلُّق القلوب بها؛ لا تساوي شيئًا في حق الآخرة، كل نعيم الدنيا ولذَّاتها لا يَعدِلُ غمسة واحدة في النار، وكل شقاء الدنيا وآلامها لا يَعدِلُ غمسة واحدة في الجنة، قال تعالى: { **لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا في البِلادِ * مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهم جَهَنَّمُ وبِئْسَ المِهادُ** } [سورة آل عمران: الآيتان ١٩٦: ١٩٧].

وإن استيعاب هذا المعنى مما يُعين على تجاوز آلام الابتلاء، فالذين وطَّنوا نفوسهم على أن الدنيا "دارُ كَدَر" هُم أقدر الناس على مجاهدتها واستشعار العبودية، فالدنيا سجن للمؤمن، ولننظر كيف أن الله عزَّ وجلَّ في سورة البلد بعد أن أقسم بقَسَم بعد قَسَمٍ قال: { **لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ** } [سورة البلد: الآية ٤]، أي لا ينفك عن التعب والشِّدة والعجز، وهذا لزوم التمحيص وإدراك أن الدنيا ليست مُستقَرًّا ولا سَكنًا، حتى لا تستقِر في القلوب ولا تسكن إليها النفوس، وما أعجب كلام الفخر الرازي: "ليس في هذه الدنيا لذّةٌ البتّة، بل ذاك الذي يُظنُّ أنه لذّة من لذّاتها؛ فهو خلاصٌ عن الألم، فليس للإنسان في الدنيا إلا ألمٌ أو خلاصٌ عن ألم وانتقالٌ إلى

آخر"[١]، قال ابن القيم: "ومن رحمته أن نغَّص عليهم الدنيا وكَدرها لئلا يسكنوا إليها ولا يطمئنوا، فساقهم إلى ذلك بسياط الابتلاء والامتحان، فمنَعهم ليُعطيَهم وابتلاهم ليُعافيَهم"[٢].

ومنه نفهم حقيقة معنى { **فَقَدْ فَازَ** } في قوله تعالى: { **وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ** } [سورة آل عمران: الآية ١٨٥]، فهذه الجنة وهذا الفوز، هو أصعبُ انتظار أحقُّ بالصبر، وأشفى مصير للذين شوَّهت الدنيا نفوسهم وأوغلت في إيلامهم، وفي الحديث أنه «**يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ! وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ**»[٣]!

فمنزلة المؤمن الحقيقية بقدر ما يُلاقيه من الصعاب وما ينزل به من البأس وما يَحيق به من البلاء، مهما أوتي من العلم ما أوتي، أو رُزق من الفصاحة ما رُزق، أو اشتد في العبادة ما اشتد، قال تعالى: { **أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** } [سورة

(١) محمد بن عمر بن الحسن الرازي: مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٣١ ص ١٦٦.

(٢) ابن قيم الجوزية: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، مرجع سابق، ج ٢ ص ١٧٥.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٠٧/ كتاب صفة القيامة والجنة والنار) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

العنكبوت: الآيتان ٢: ٣]، وقال: { **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ** } [سورة البقرة: الآية ٢١٤].

لأن الغاية من تأخير النصر ليست في العادة؛ "الاختبار" وكشف معدن النفس، بل ربما كانت الغاية؛ "الهداية"[١]، فمن أصول الدين الجليلة أن الهَدي أعظم من الرزق والنصر، لأن الرزق والنصر منفعتهما في الدنيا أكبر، ومنفعة الهداية في الآخرة أكبر، ولذلك كان من أقدار الله عزَّ وجلَّ أن يُضيق على بعض الناس في الرزق أو يُؤخر عنهم النصر؛ طلبًا للهداية، وهو يعلم أن هُداهم لا يكون إلا بذلك، فيحسبون أن ذلك من تضييق الاختبار، وهو إنعامٌ محض، ولذلك رغم أن التكبير استُحب في مواطن النصر والهداية معًا، لكنه لم يرد في القرآن مقترنًا بالنصر، في حين جاء مُقترنًا بالهداية: { **لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ** } [سورة الحج: الآية ٣٧] وتكرر الاقتران مرتين!

لذلك كان التجرد من النعمة والعودة لحالة الإفلاس التي هي أقرب حال للابتلاء؛ من أبواب الدخول على الله عزَّ وجلَّ، وفي حديث سيد الاستغفار الذي هو من أعظم الدعاء: «**أَبُوءُ لَكَ**

(١) وهذا يصدُق في نوعَي الهداية، الهداية العامة للدين التي هي لكل الناس، ويُسميها بعض العلماء هداية بيان، وهداية خاصة تتبعها وهي هداية التوفيق والمعية، التي هي: «**كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا**»، وقال عنها الله عزَّ وجلَّ: { **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ** } [سورة البقرة: الآية ٢٨٢]، وقال: { **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** } [سورة العنكبوت: الآية ٦٩].

بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي»[١]، أي كما أنخلع من اغتراري بنفسي؛ أُقِرُّ بعيوبي، فجعل النعمة بابًا للافتقار، فالافتقار يوجب الانكسار، ومشاهدة المنّة تستجيش المَسْكَنة، فهذا من أخص ما تفعله العبودية في النفس، أن تنخلع من فردانيتها واغترارها بنفسها، لذلك كانت أنفع المعارف للإنسان أن يعلم حقيقته، فمن أدرك حقيقة نفسه أدرك عظمة من يعبُد، ومن أدرك حقيقة نفسه وحقيقة من يعبُد أدرك حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة.

وإن أعظم الوفاء وطيب العهد، ما كان مع الله عزَّ وجلَّ، لا عند سؤال النعمة فحسب، بل بعد حصولها كذلك بردّ فضلها لله تعالى، وبعد زوالها بالكفّ عن السخط لأجلها، بأن يتذكر المؤمن المنّة في أيام الشِّدة، ويستحضر العطاء في أوقات المنع، ولا ينسى العِزة حين الأسى، أن يرى أنه لولا لُطف الله ما كان له أن يصير إلام صار إليه من الهُدى، حتى مشاعره النبيلة تجاه آلامه وآلام أُمته فضلٌ من الله تعالى. وتأمل موقف النبي صلى الله عليه وسلم لما دعا غلامًا يهوديًّا يحتضر للإسلام، فأسلم، فخرج صلى الله عليه وسلم وهو يقول: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ بِي مِنَ النَّارِ**»[٢]، فنسب الهداية لربِّه عزَّ وجلَّ وجعل نفسه سببًا موصلًا لفضل الله ليس أكثر، وكان يقول يوم الخندق حين اشتد البلاء: «**وَاللَّهِ لَوْلاَ اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا، وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ**

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه (٦٣٠٦/ كتاب الدعوات) من حديث شَدَّاد بن أَوْس رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود في سننه (٣٠٩٥/ كتاب الجنائز)، والنسائي في سننه الكبرى (٨/ ٩)، وأحمد في مسنده (٢١/ ٧٨)، وغيرهم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وللحديث أصل في صحيح البخاري (١٣٥٦/ كتاب الجنائز) لكن ليس فيه محل الشاهد الذي أردت.

صَلَّيْنَا»[١]، فأعدل العدل حفظ عهد الربوبية والعبودية.

وإن الله عزَّ وجلَّ ليُخرج المؤمن من النعمة إلى المحنة حين يكون في أشد الحاجة للمحنة، لإصلاح نفسه أو إصلاح غيره، ثم يُخرج له النعمة من ظهر المحنة وهو في أشد الحاجة للنعمة، لتثبيته أو تصبيره أو ترضيته هو أو غيره! وهو ينقله من هذه الحال إلى هذه الحال، ثم من تلك الحال إلى تلك الحال، بعد تهيئته لكل حال، فلا يخرج إلى حال المحنة إلا وقد فقَدَ تعلُّقه بحال النعمة بما رآه من حوله، ولا يخرج إلى حال النعمة إلا وقد آنس حال المحنة بكشفها الناس والأشياء من حوله، فسبيله عزَّ وجلَّ في كلِّ الرفق لا الشِّدة، حتى يُرضي المؤمن في كل ما حوله ومن حوله!

لأن البلاء ليس مقصودًا لذاته، لذلك لا يخلو بلاء من لُطف، وهذا "اللُطف" يرتهن بصدق المُبتلى، لذلك يستشعره المؤمن ويُميزه ويطمئن به.

فاللُّطف ليس بالضرورة أن يكون رفعًا للبلاء أو تخفيفًا فيه، بل قد يكون تمهيدًا للبلاء وتهيئةَ النفس له، بحيث إذا وقع لا تجزع له النفس، إذ هي مستعدة له، فمشاهدة المُبتلين ومعاينة معاناتهم لُطف، والقرب من الله قبل وقوع البلاء لُطف، كل ذلك وما هو من جنسه تهيئة للنفس بحيث تكون أقدر على تحمُّل البلاء ونجاحها في اختبار الإيمان الذي وضعت فيه، لذلك كان ابتلاء الناس على قدر دينهم، فأشدّهم الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه (٤١٠٤/ كتاب المغازي)، ومسلم في صحيحه (١٨٠٣/ كتاب الجهاد والسِّيَر)، من حديث البَراء بن عازب رضي الله عنهما.

ومنه يُعلَم سر ارتباط اسمه تعالى "اللطيف" باسمه "الخبير"، إذ لا يقوم بمقتضيات اللُطف إلا من خبر بما خفي في الصدور، وعلم بدقائق الأمور، وهو لا يعلمها علمًا مجردًا، بل هو يعلم كيف يقوم بها! وكيف يتصرف فيها! فلا تعزب عنه شاردة ولا واردة، ولا تخفى عليه دقيقة ولا غامضة، خالق العباد وهو أدرى بهم وبأحوالهم وعاقبة أمرهم وما فيه صلاحهم.

فهذه المعاني: العبودية، والإيمان، والإحسان، والافتقار، واللُطف، وغيرها من المعاني الروحية؛ لا تتحقق في أعمق معانيها وأبلغ غايتها، إلا بـ "**التزكية بالابتلاء**".

إن أهم ما في التزكية في الإسلام أنها لا تطلب السلوك فقط من ترك معاصٍ وفعل طاعات، بل الأهم أنها تستجيش المشاعر وتطلب الوجدان، أي تحقيق التوحيد في الشعور أولًا، وعلى قدر ما يستقيم الشعور؛ يستقيم السلوك، وهنا تأتي وظيفة مهمة من وظائف الابتلاء، إذ ليس ثمة موطن يختبر حقيقة المشاعر مثل موطن "الشِّدة" الذي يظهر فيه معدن القلب وأصالة النفس؛ الاحتساب والافتقار والمعية والتوكل والإنابة وصدق الطلب والرجاء في الله وحُسن الظن فيه والعِزة به والانكسار له وقطع العلائق بغيره، فالقلب مرتكز كل ذلك، لذلك في قول الله تعالى: { **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ** } [سورة الأنعام: الآيتان ٤٢: ٤٣]، بيّن أن الشِّدة كانت لإلانة القلب: { **لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ** }، فالتضرع ينشأ عن لين في القلب، لكن قلوبهم كانت أقسى من أن تلين بالابتلاء.

فهذا جوهر التوحيد، حيث تَعرِف النفسُ حقيقَتها، وتقف عند حدود الله وعند العدل والفضيلة استعدادًا للقائه وتَهيُّبًا من حسابه عزَّ وجلَّ.

ومن دون هذه التزكية بالابتلاء؛ كيف يواجه المسلم شيطان نفسه؟! وكيف يواجه شياطين الإنس والجن؟!

فالإسلام يقول لنا بوضوح إن الدنيا جسر، وإنه لا سبيل لعبوره دون هذه البلاءات، ولا حيلة له معها إلا بالعبودية.

ولننظر مثلًا لبلاء مثل زلزال قهرمان مرعش ٢٠٢٣م، الذي أزهق أكثر من خمسين ألف نفس دفعةً واحدة في ليلة واحدة في جنوب تركيا وشمال سوريا، ودمَّر القرى والمدن، وخَلَّف أكثر من مئة وعشرين ألف مُصاب، ونحوه كل انقلابات الطبيعة من زلزال أو فيضان أو إعصار، وتأمَّل كيف تكشف هذه البلاءات بما لا لبْس فيه محدودية "العلم" وتهافت دعاوى تعظيمه ومقارنته بـ "الإيمان"! ولنلاحظ دور العلم والإنسانوية وقيم التنوير المزعومة في مثل هذه الأحوال، وكيف أنها في غاية الحقارة! فلا هي تنفع الناس وتُجنِّبهم المصائب وتعصمهم نتائجها، ولا تُفلح في أي دور وجداني مع الناس!

وفي المقابل، تأمَّل موقف الإسلام تجاه هذه الأزمات، نجده يؤكد من البداية كيف أن الإنسان عُرضة لهذه المصائب! إما ابتلاءً وإما عقوبة، وفي الحالتين يوضح كيف يتعامل الإنسان معها؛ إما صبرًا واحتسابًا، وإما إعادةً للنظر في تصورات الإنسان والحياة، بالجهاد والأوبة والتوبة والاعتبار، لأن الدنيا أصلًا ليست مستقرًّا بطبيعتها، وما هي إلا قنطرة لحياة أخرى أكبر وأرحب!

وهذا هو الفرق بين الدين والمنظومات المادية الوضعية التي تنفصل التكاليف فيها عن الأخلاق، وتتعالى على مشاعر الناس لأنها تتعالى على واقعهم، أما الإسلام فلأنه لا يتعالى على الواقع ولا ينفصل عنه؛ لا يحط من مشاعر الناس، بل يستجيشها ويقويها ويستخرج منها طاقة دافعة للعمل، فيخبره بوضوح: من هو، ولماذا يواجه ما يواجه، وماذا عليه حين يواجه، وفي أي صف هو، وماذا ينبغي أن يفعل! كل ذلك حتى يوجِّه طاقته النفسية نحو البذل والغرس، لا في دار الدنيا فحسب، ولا في دار الآخرة فقط، بل في الدارين معًا.

فالإيمان لا يترك الإنسان دون أن يُعيد تشكيل نظرته ويُذكِّره بفطرة التوحيد، ويشحن وجدانه بمعانٍ يستحيل على غير الدين الوصول لها، فتمتلئ نفسه؛ حمدًا وشكرًا واستغفارًا وتسبيحًا وتكبيرًا وذكرًا، فلا يتركه فريسةً للهم والكرب والأسى والحزن وحيرة العقلانية، بل يُعيد له توازنه ويصحِّح مساره، ويُعلِّمه كيف تكون الأخلاق فعلًا وحركة لا اسمًا ووصفًا، وكيف أن العبودية منهج حياة لا محيص عنه! وإذا حانت آخرته وفي يده فسيلة؛ ماذا يجب عليه أن يفعل!

فلا يكتفي الدين بالمواساة في المُصاب والتصبير على الأسى، بل يُعلِّم ويُرشِّد، وبحسب سعة المسلم وطاقته يرسم له طريق العمل، فلا يدع لمسلمٍ عُذرًا في ترك العمل، حتى مع الابتلاء، لذلك نهى الإسلام عن "**الجَزَع**"، ومنه قول ابن تيمية: "الأمور أمران: أمرٌ فيه حيلة، وأمرٌ لا حيلة فيه، فما فيه حيلةٌ لا

يعجزُ المؤمن عنه، وما لا حيلةَ فيه لا يجَزَعُ منه"[١]، فالشيطان يستحوذ على الإنسان بالجَزَع، فإن أسوأ الخواطر لتأتي في أسوأ الأزمان.

وبعض الناس يتصور أن معنى الجَزَع ألا يتألم أو يحزن، وليس هو كذلك، بل المراد ألا يقطعه الألم عن العمل، وما أبدع تعريف الجَزَع بأنه: "حُزن يَصرف الإنسان عما هو بصدده ويقطعه عنه"[٢]، فالشريعة لا تمنع الحزن والألم، لأنهما شعوران فطريان، ينشآن عن الرحمة ورقة الطبع، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أرَقَّ الناس قلبًا ومع ذلك أبعدهم عن الجَزَع، فالشريعة تذُمُّ الحزن إذا صرف المؤمن عن العمل، وهو قول الله تعالى: { **وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } [سورة آل عمران: الآية ١٣٩] أي أنتم الغالبون إذا عملتم ولم يعطلكم الحزن والهم، فالجَزَع: ضعف في النفس وضعف في الإيمان.

فمن حِفظ الله لعباده المؤمنين؛ أن يَثبتوا في أزمنة العجز، قال الله تعالى في أصحاب الكهف: { **إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ** } [سورة الكهف: الآية ١٤]، وعن أم موسى عليه السلام: { **لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا** } [سورة القصص: الآية ١٠]، أي شدّ على قلوبهم فلم تخر، ثبتهم في الشدائد فقاومت قلوبهم؛ انهيار نفوسهم، ولم يقعوا فريسةً للجزع واليأس، فالجزع يُمزق القلب ويكسر النفس، عنه يقول الله تعالى في يوم الأحزاب: { **وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ** } [سورة الأحزاب: الآية ١٠]، أي فزعت القلوب فزعًا شديدًا حتى كأنها من هذا الفزع؛ تحركت من

(١) أحمد بن عبد الحليم بن تيمية: مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ج ٨ ص ٢٨٥.

(٢) محمود بن عبد الله الألوسي: روح المعاني، مرجع سابق، ج ١٥ ص ٦٩.

موضعها وكادت أن تخرج من الحناجر!

فالثبات الحقيقي، ألا تتفرق النفس في مواقف الجزع، لأن الفزع ينبغي أن يكون كله في الله؛ منه وإليه.

التكريم بالاستعمال

ابتداءً، يجب أن نُفرِّق بين قُدرتنا على الحل، والوعي بالحل، فالعجز عن الحل لا يُبرر إهمال الوعي به، بل إبقاء الوعي بالحل والحفاظ على جذوته؛ جزء من الحل. وتأمَّل كيف أن بَيْن قول الله تعالى لنبيه نوح عليه السلام: { **وأُوحِيَ إلى نُوحٍ أنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إلا مِن قَدْ آمَنَ** } [سورة هود: الآية ٣٦]، وقولُه عليه السلام: { **ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها ومُرْساها** } [سورة هود: الآية ٤١]؛ زمنًا، الذي هو زمن صنع السفينة، حين جاء الأمر لنوح: { **واصْنَعِ الفُلْكَ** } [سورة هود: الآية ٣٧]، لم يستغرب نوح الأمر أو يتبرم منه أَو يرتاب فيه فيقول: أين يا رب العذاب الذي لطالما أنذرتهم إياه؟! أي سفينة أصنع في هذا الموضع البعيد عن الماء؟! أي سفينة أصنع وأنا لست نجارًا؟! فهو لم يكن نجارًا، إنما عُرف بالنجارة من صُنعه السفينة! بل أطاع نوح الأمر، واشتغل فورًا بصنعها بيقين لا يتزعزع، شهورًا، وربما سنوات، وهو يبني في السفينة، يقطع أخشابها ويُعِد أدواتها ثم يبنيها ويجمع حمولتها شيئًا فشيئًا، كل ذلك وهو في غاية الاستضعاف من قومه، فكلما مر عليهم أو مروا عليه { سَخِرُوا مِنهُ } [سورة هود: الآية ٣٨]، نهارًا وليلًا، ليلًا ونهارًا، ما بين صبر على تجهيز السفينة وصبر على سخرية قومه، لكنه لا يأبه، إذ أمر الله إليه أحب وأصدق، وفي المقدور أن يكون عذاب قومه عذابًا لا يستلزم زمن بناء السفينة، وأن تكون نجاة نوح في فعل لا يتطلب بناء السفينة، لكن إرادة الله أن يُمهلهم وأن يكون

عذابهم فيما لم يخشوه يومًا، ونجاة نوح فيما كان محطَّ سُخريتهم دومًا، وإرادة الله فوق كُلِّ إرادة.

لنعلم أن زمن صنع السفينة – الذي هو الحد الفاصل بين ما قبله وما بعده، والذي ما بعده ليس كما قبله – ليس زمن امتحان نوح عليه السلام وأصحابه فحسب، بل زمن الامتحان الحقيقي لصبر وعمل كُل مؤمن، فيه تُهيَّأ نجاته من حيث لا يدري، وفيه يُهيِّئ الله شفاء صدره وذهاب غيظ قلبه من حيث لا يحتسب.

وقد رأينا في "حرب غزة" كيف أن المجاهدين كانوا يقاتلون عبر أنفاق عجيبة حيَّرت العالم، ويدمرون أقوى الآليات والمعدات بأسلحة مذهلة بالنظر إلى ضعف الإمكانيات وشدة الحصار والاستضعاف الذي كانوا فيه، وهم أنفسهم فيهم من الطاقة النفسية والصمود الأسطوري ما عجزت الأقلام عن وصفه، فهذه الحال لم تصنع اليوم ولم تكن وليدة اللحظة، بل استغرقت سنوات طويلة من التخطيط والإعداد والتجربة حتى خرجت للنور بالصورة التي رأينا!

فالوعي بالحل والحفاظ على جذوته؛ جزء من الحل.

والحل، أخبرنا به الله عزَّ وجلَّ في كتابه قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام: { **قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ** } [سورة التوبة: الآيتان ١٤: ١٥]، فأي تمكين أو رفع للظُّلم بين الناس لا يحدث عبثًا، هو مُراد الله قطعًا، يحدث بيد المُستضعف أو المظلوم أو بيد غيرهما، لكن القيمة الحقيقية والمعنى الأبلغ في حدوث التمكين بيد المُستضعف أو رفع الظُّلم بيد المظلوم: تمام شفاء الصدور من الألم وإذهاب غيظ

القلوب، فجعلت الآية النصر وشفاء الصدر وذهاب غيظ القلب؛ قرينَ ما لحق المغلوبين من الذُّلّ والهوان والخزي، إذ شاهدوا أنفسهم مقهورين بأيدي الغالب، مصائرهم بين يدي الذي كان مصيره بالأمس بين أيديهم هم.

وليس يشفي صدوركم فقط، بل صدور قوم مؤمنين!

فهذا التعبير: { **وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ** } يستبطن قيمة من أهم قيم الإسلام هي "**الاستعمال**"؛ الاستعمال في إعزاز المؤمنين وشفاء صدورهم، وامتلاء نفوسهم بهذه العِزة، فجعل بعض المؤمنين آلةً في العناية بنفوس باقي المؤمنين.

واستعمال الله عزَّ وجلَّ للمؤمن، غالبًا ما يأتي في الضمائر في نصوص الوحي، ومنها قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ، اللَّهُمَّ اهْدِنَا وَاهْدِ بِنَا، وَانْصُرْنَا وَانْصُرْ بِنَا**»[١]، فهذه الباء والضمير «**بنا**»، يُراد منهما هذا التشريف والتكريم بـ "الاستعمال"، ونحوه قوله صلى الله عليه وسلم حين دعا غلامًا يهوديًا يحتضر للإسلام، فأسلم: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ بِي مِنَ النَّارِ**»[٢]، وهذا من جوامع كلامه صلى الله عليه وسلم؛ إذ جمع بين شكر الله على هداية الغلام لأنه عزَّ وجلَّ هو الذي أنعم عليه بها وتفضَّل ووفَّقه إليها، وشكر الله أن استعمل نبيه صلى الله عليه وسلم في إيصال هذه الهداية للغلام وجعله سببًا فيها، فكأنه صلى الله عليه وسلم شكر ربه مرتين؛ مرةً عن الغلام ومرةً عن نفسه.

---

(١) الحديث مرسل، لكن حسَّنه البعض لأنه في فضائل الأعمال، سبق تخريجه.

(٢) صحيح: سبق تخريجه.

لذلك كان من نفائس دعاء النبي صلى الله عليه وسلم، قوله إذا عاد مريضًا: «**اللَّهُمَّ اشْفِ عَبْدَكَ يَنْكَأُ لَكَ عَدُوًّا، أَوْ يَمْشِي لَكَ إِلَى صَلَاةٍ**»[1]، فجمع بين عمود الدين وذروة سَنَامه، جمع بين الولاء والبراء في أبعد غايتهما؛ الطاعة مع أولياء الله عزَّ وجلَّ، والنكاية في أعدائه، ولفظة «**لَكَ**» أي طلبًا لرضاك وامتثالًا لأمرك، فهذا الدعاء في الحقيقة سؤال بـ "الاستعمال"، أي أذهب الأذى عنه يا ربّ واستعمله في أسمى ما يتعبدك به؛ طاعتك وغيظ عدوك.

ومنه نفهم لماذا منع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولاته من استعمال الكافرين إلا لضرورة مؤقتة، ولماذا منع الفقهاء استعمالهم في شيء من ولايات المسلمين، حتى بلغ بأحمد بن حنبل أن قال: "لا يُستعان بهم في شيء"[2]، فالاستعمال كرامة، وكيف يستقيم تكريم من أهانه الله عزَّ وجلَّ؟!

وهذا مقتضى قوله تعالى: { **وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم** } [سورة محمد: الآية ٣٨]، فهذا المبدأ القرآني يحمل حقيقة في غاية الأهمية؛ هي أن الإنسان مُكرَّم بالاستعمال، مُكرَّم بالجهاد، مُكرَّم بالشهادة! فـ "**الاستبدال**" بقدر ما فيه من حطٍّ للمتروكين؛ فيه تكريمٌ للمُستعمَلين.

وإذا تدبرنا آية الاستبدال هذه، عرفنا حقيقة أخرى غريبة، أنه

---

(١) صحيح بمجموع طرقه: سبق تخريجه.

(٢) محمد بن أبي بكر قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، تحقيق: يوسف بن أحمد البكري وشاكر بن توفيق العاروري، رمادي للنشر (الدمام)، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م، ج ١ ص ٤٤٨.
بالطبع مسألة الاستعانة بالمشرك فيها تفصيل فقهي طويل، ليس هنا مقام بسطه، لكني فقط أبين سريعًا انعكاسات قيمة "الاستعمال" وكيف أن السلف كانوا يستوعبونها.

رغم مرارة سُنة "الاستبدال" وشدّتها على من بُدلوا؛ إلا أنها رحمة بالمؤمنين!

فالاستبدال لم يُذْكر في القرآن إلا عند الكلام عن نُصرة الدين ونجدة المؤمنين، يقول ابن تيمية: "فمن ترك الجهاد عذَّبه الله بالذُّلّ، ونَزَعَ الأمرَ منه فأعطاه لغيره، فإن هذا الدين لمن ذَبَّ عنه"[١]، وفي الموضعين الذين ذُكر فيهما الاستبدال اقترن مرةً بقوله تعالى: { **وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا** } [سورة التوبة: الآية ٣٩]، ومرةً بقوله: { **ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم** } [سورة محمد: الآية ٣٨]، أي أفضل منكم ينصرون دينه ويُنجزون وعده، يقول الفخر الرازي: "لئلا يَتوهموا أن غلبةَ أعداء الدِّين وعِزَّ الإسلام لا يحصُلُ إلا بهم"[٢].

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**لَا يَزَالُ اللَّهُ يَغْرِسُ فِي هَذَا الدِّينِ غَرْسًا يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي طَاعَتِهِ**»[٣]، بعض العلماء فسَّروا هذا الحديث بأن خيرية الأُمة لا تنقطع، وكان من دعاء بعض العارفين: "اللهم اجعلنِي من غرسك الذين تستعملهم بطاعتك".

لكن المعنى الأبلغ الذي تُفيده لفظة «**يَغْرِسُ**» أن الله عزَّ وجلَّ يتعهَّد مَن يستعمله، وما استعمله فيه من إقامة شرعه ونصْر دينه، فما من "غرسٍ" يكون الله عزَّ وجلَّ هو الذي غرسه إلا أثمر وأزهر،

(١) أحمد بن عبد الحليم بن تيمية: جامع المسائل، تحقيق: محمد عزير شمس، دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، ج ٥ ص ٣٠٠.

(٢) محمد بن عمر بن الحسن الرازي: مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ١٦ ص ٤٨.

(٣) حسن: أخرجه ابن ماجة في سننه (٨/ كتاب الإيمان)، وأحمد في مسنده (٢٩/ ٣٢٥)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٣٢)، وغيرهم من حديث أبي عِنَبَة الخَولاني رضي الله عنه.

وما من "غرسٍ" لله يُثمر ويُزهر إلا بتعهدٍ ونُصرةٍ ومعيةٍ ومعونة، فلا يموت مجاهد إلا وقد زرع الجهاد في قلب فئام من الناس، ولا استوفى عالم أجله إلا وقد زرع العلم في قلب غيره، ولا يقضي عابد إلا وقد حبَّب خلقه في العبادة.

فمن قواعد هذا الدين أن الهداية فيه بقدر البذل له، والتوفيق فيه بقدر العطاء، فأكثر الناس يعلمون أن إصلاح السرائر يُفضي إلى استقامة الظواهر، لكنهم يغفلون عن أن إصلاح الظواهر يوجب البركات كذلك، فالأنبياء كانوا من خيار أقوامهم قبل نبواتهم، عصموا ما يُصغِّر أقدراهم، وميَّزهم الله على خلقه من قَبل النبوة، ثم زادهم فضلًا بالنبوة، وكان أبو علي الدقاق شيخ القُشيري يقول: "حركات الظواهر توجب بركات السرائر"[١]، فمن ترك ما يَقدِر عليه من العمل لله فاتَهُ من الهُدى بحسب ما فوَّت من العمل، والذي يضع نفسه مواضع الاستعمال يُستعمل، قال تعالى: { **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** } [سورة العنكبوت: الآية ٦٩].

قرأتُ مرة ملاحظة مهمة عن "الأُمة" لأحد الكُتّاب المعاصرين[٢] يقول: "كما أن الله لم يستثنِ أحدًا من الخيرية، لم يستثنِ أحدًا من المسئولية"، فالفضل اقتضى التكليف والتبعة، حتى لا يتوهم أحد أن الخيرية سببها صفات ذاتية مرتبطة بأصل الخلقة، كما زعمت اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه، ومرادهم لا عين البنوة، فإن ادعاءهم البنوة كان لرُسل الله لا أنفسهم، لكنهم قصدوا الحظوة والقُرب وأن عناية الله بهم أشدّ من غيرهم فكانوا في التعظيم كأبناء

---

(١) عبد الكريم بن هوازن القُشيْريّ: الرسالة القُشيْريّة، مرجع سابق، ج ١ ص ٢١٦.

(٢) لا أتذكره بكل أسف، وقد اجتهدت في الوصول له مرةً أخرى، فلم أتمكن.

الله، فردّ تعالى عليهم: { **فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ** } [سورة المائدة: الآية ١٨]، فمن شأن المُقرَّب أن يُستعمل، ومن شأن الذي يُوفي ألا يُستبدل، من شأن المُحب ألا يُعصي، ومن شأن من لم يعصِ ألا يُعاقب.

ومن عدل الله عزَّ وجلَّ أنه لا يستبدل أحدًا أو جماعة إلا بعد أن يُقيم عليهم حُجة الاستعمال، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**ما هلَكَ قومٌ حتى يُعذِروا من أنفُسِهِم**»[١]، أي أُقيمت الحُجة عليهم، ولم يبقَ لهم عذر في ترك العمل والتكليف، حتى أن أحدهم لا يجد ما يعذر به نفسه التي بين جنبيه، قال الطيبي: "فكأنهم أعذَرُوا من يُعاقبُهُم"، قال أبو الدرداء رضي الله عنه: "ما أهوَن الخلق على الله عزَّ وجلَّ إذا أضاعوا أمرَه"[٢]!

ومنه نعلم السر في: لماذا يُطيل الله عزَّ وجلَّ أعمار الظلمة والفسدة؟ ولماذا لا يُريح العباد منهم؟!

في تفسير قوله تعالى: { **وَأُمْلِي لَهُمْ** } [سورة الأعراف: الآية ١٨٣]، من أبلغ وجوه تفسيرها أن الله عزَّ وجلَّ يُبقيهم في الدنيا مع إصرارهم على الطُغيان؛ إلقاءً لهم في ورطةِ التكليف! فيُطيل أعمارهم، ويُمكِّنهم من المعاصي، فيزيد فسقهم وظلمهم وكفرانهم وتتأكد سوء خاتمتهم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والإملاء: إطالة العمر،

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في سننه (٤٣٤٧/ كتاب الملاحم)، وأحمد في مسنده (٣٠/ ٢٢٢)، وابن الجَعْد في مسنده (٣٦) وغيرهم من حديث أحد أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وإيهام اسمه لا يضر فكل الصحابة عدول، ورجال الحديث كلهم ثقات، رجال البخاري ومسلم.

(٢) صحيح موقوف: أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٢/ ٢٩٠)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٢١٦)، وأحمد في الزهد (١١٧)، وغيرهم.

وما في ضمنه من رزق ونصر"[١]! فهذا معنى { **سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ** } [سورة الأعراف: الآية ١٨٢] أي من حيث يحسبون أنهم موفقون مؤيَّدون، لذلك قال بعدها مباشرةً: { **وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ** } [سورة الأعراف: الآية ١٨٣]، فهذا الوصف { **مَتِينٌ** } الذي هو خليط من معاني القوة والشِّدة والرسوخ، ولم يرد في القرآن إلا في جانب الله عزَّ وجلَّ، وفي وصف كيده تعالى؛ السر فيه ليس في "الإملاء"، أي التأخير في ذاته، بل في عدم التوقع وأمن العقاب، بحيث يكون المُملَى له أبعد ما يكون عن الاستعداد للمُصيبة التي تنزل به، فذلك أدعى لاستحالة الإفلات واستشعار الحسرة.

ومن براعة الفخر الرازي في تفسير: { **سَنَسْتَدْرِجُهُمْ** } حمّلها على معنى "سنُقَرِّبُهم"[٢]، أي بما يُخيّل إليهم أنه كرامة وإنعام، وفي الأثر قيل لذي النُّون المصري: ما أقصى ما يُخدع به العبد؟ قال: "بالألطاف والكرامات"!

ولتتأكد بذلك مسئولية المؤمنين، وحقيقة أن الدنيا دار ابتلاء ومجاهدة؛ ابتلاء بالمظالم، ومجاهدة للظلم، لذلك كان الشهيد والمجاهد والمرابط أعظم أجرًا، وكان أشد الناس بلاءً هم الأنبياء وورثة الأنبياء: العلماء.

فتنال الجنة حظها من المؤمنين، وتُرزق النار حظها من الظالمين، فما خَلَقهم الله إلا للعذاب وأسفل دركات النار، فذلك

(١) أحمد بن عبد الحليم بن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب (بيروت)، الطبعة السابعة ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م، ج ٢ ص ٣١٧.

(٢) محمد بن عمر بن الحسن الرازي: مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ١٥ ص ٤١٨.

قوله: { **إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ** } [سورة آل عمران: الآية ١٧٨]، وفي الحديث الصحيح قال صلى الله عليه وسلم: «**أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَى امْرِئٍ؛ أَخَّرَ أَجَلَهُ**»[١]، لذلك قال الله تعالى في سياق تحذير المؤمنين من سبيل أهل الكتاب: { **فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ** } [سورة الحديد: الآية ١٦]، لأن طول الأمد يورث الأمل وطول الأمل يورث الغفلة وطول الغفلة تورث قسوة القلب، وقليل من ينتبه إلى هذا الاستدراج، فإن الإنسان كلما تعلَّق بمرادات الدنيا أكثر كان سعيه في تحصيلها أكبر، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم خطَّ مربعًا وخطَّ خطًّا في الوسط خارجًا منه، وخطَّ خُططًا صغارًا إلى هذا الذي في الوسط من جانبه، وقال: «**هَذَا الإِنْسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ قَدْ أَحَاطَ بِهِ، وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ، وَهَذِهِ الخُطَطُ الصِّغَارُ الأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا**»[٢]، فهذا مثال ضربه النبي صلى الله عليه وسلم لطول الأمل وبَغتة الأجل كأنه يقول: إن طول الأمل يُنسي الأجل، وأعراض الدنيا تُنسي الآخرة.

فمهما طالت أعمار الظالمين والكافرين، ومهما تنعموا في الدنيا، ومهما تسلَّطوا على المظلومين والصالحين؛ فالمصير إلى الله عزَّ وجلَّ، وعذاب الآخرة أبقى لهم من نعيم الدنيا، كما أن نعيم الآخرة للمؤمنين أبقى لهم من آلام الدنيا.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤١٩/ كتاب الرِّقاق) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤١٧/ كتاب الرِّقاق) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

فليبدأ كل منا بما يسَعه لا ما وسع غيره ولا ما أخَّره، يقول محب الدين الخطيب: "أما نحن فقد رضينا أن نكون غُثاءً كغُثاء السيل، وسنظلُّ غثاءً حتى نَرجِعَ مسلمين، فيصهرنا الإسلام بحرارته، ويجعلنا كما كان أجدادنا أُمةَ عملٍ، فنتأهلُ بذلك للخلافة على الأرض، ولكن متى نبدأ؟!

سنبدأ يوم يُبادر كل واحد منَّا فيبدأ، غير مُلتفِت إلى غيره إن كان قد بدأ أم لا"[1].

(١) مُحب الدين الخطيب: غُثاء كغثاء السيل، صحيفة الفتح، العدد ٣٤٩، ٢١ صفر ١٣٥٢هـ/ ١٥ يونيو ١٩٣٣م.

زيف القيم الغربية ووهم الأنظمة الأرضية

لا أعتقد أن ثمة كذبة في هذا العالم أكبر من كذبة "القانون الدولي"، لقد وضع الغرب قوانين زعموا أنها تمخضت عن حروب، وأنهم أقاموا من أجلها الحروب، قالوا وهم يُدرسونها لنا أنهم بذلوا دونها الغالي والنفيس، وأنهم على استعداد لفعل كل شيء لفرض احترامها!

وما أكذبهم!

لو أن هذا عالَم عادل ويحترم القانون حقًّا لحوكم "بوش" وحلفاؤه في إنجلترا وفرنسا عن مجازر أفغانستان والعراق، ولحوكم بشَّار وحلفاؤه في روسيا وإيران عن مجازر سوريا، ولحوكم "شارون" و"نتنياهو" وحلفاؤهم وأعوانهم في الكيان المحتل والنُظم التي تكفُله وتتعهده وتحوطه بالعناية عن مجازر فلسطين !

يقول عبد الرزاق السنهوري - القانوني الأشهر الذي ضُرب بأحذية أعضاء الحزب الاشتراكي في قلب مجلس الدولة قبل أن يعتزل الناس والحياة - في مذكراته الشخصية؛ "أُفكر في القوة وتأثيرها في هذا العالم الذي لا يفوز فيه إلا القوي، القوة هي كل شيء، عبثًا نقول "قوة القانون" "احترام العهود" "ارتباط الأمم"، هذه أسماء ابتدعها أقوياء العقول والأجسام ليسخروا بها من الضعفاء والمظلومين، ليس للضعيف إلا دواء واحد وهو أن يتقوَّى، في هذا

العالم المضطرب النواحي الفسيح الأرجاء لا يستطيع الإنسان أن يعيش إلا خادمًا أو مخدومًا، فاختر أي الرجلين تُريد أن تكون"!

فالقانون الدولي خدعة كبيرة، لا يُراد بها إلا تركيع الأُمم الضعيفة لنظام الأمم القوية، التي تضع القواعد التي شاءت وقتما شاءت وتنتهكها كيف شاءت وقت شاءت! أين القانون الدولي من قتل المدنيين والعُزل في "غزة"؟! أين معاهدات الحرب الدولية من الحق في المياه والدواء ومنع قصف المنازل والمستشفيات؟! أين اليونسكو من قصف المساجد والكنائس؟! أين منظمات حماية المرأة ومجالس المرأة من قتل النساء والاعتداء عليهن؟! أين منظمات حقوق الطفل ومعاهدات الطفولة من قتل الأطفال وتجويعهم؟!

لقد انتهك المحتل الغاصب لأرضنا في فلسطين في حربه على "غزة" أربع عشرة اتفاقية دولية، من بينها معاهدات جنيف الأولى والثالثة والرابعة، فضلًا عن بروتوكولاتها؛ التي يتغنون بها في كتب القانون الدولي، خرقها هذا الكيان المجرم يومًا بعد يوم لسنوات، عشرات المواد في كل اتفاقية انتُهكت انتهاكًا صارخًا، وجرائم حرب بالجملة، ولم يُتخذ أي إجراء ضد هذا المُحتل!

العلاقات الدولية - في الحقيقة - لا تستمد أصولها من هذه الاتفاقيات، بل من الأيدولوجيات والعقائد، فالقول بأن العلاقات الدولية أساسها التعاون من خلال المؤسسات الدولية، وأن عصرنا هو عصر العولمة الذي جعل العالم قرية واحدة صغيرة، وأن القيم الليبرالية أساس "السلام"؛ من أكذب أكاذيب الليبرالية الغربية، لقد كان كثير من المنظرين المسلمين - لفترة طويلة من التاريخ

الحديث - لديهم "فوبيا" من مفردات: الجهاد والجزية والولاء والبراء ونحوها، ومن ذِكرها في القرآن والسُّنة وسيرتها في التاريخ الإسلامي، حتى أكل الليبرالي الغربي أفكاره حول العلاقات الدولية والقانون الدولي، مرةً بعد مرة في فلسطين والعراق وأفغانستان، ولم يخجل في الإعلان عن الطبيعة الصراعية للعلاقات الدولية، وأن العداء ركن ركين فيها، وأن تعظيم القوة هو الذي يحكم العلاقات بين الدول!

ونحن لا نُخالفهم هذا المبدأ ولا يجب أن نُخفيه، فالعلاقات الدولية في الإسلام تستمد قواعدها من الوحي ابتداءً، والقرآن قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام يخبرنا إن الاجتماع البشري مُفضي إلى المنازعة، والمنازعة مُفضية إلى الفساد، وشريعة رب الأرباب هي التي تقوّم كل ذلك: { **وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** } [سورة البقرة: الآية ٢٥١]، ولذلك في الآية الأخرى في المدافعة: { **وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا** } [سورة الحج: الآية ٤٠]، إشارة عظيمة إلى هذا المعنى، وأن الله عز وجل لم يحفظ الأرض بمثل ما حفظها بمدافعة المسلمين لباقي الأُمم التي لا توقر دين ولا تُراعي حُرمة، ذلك أن مُتعبدات أهل الكتاب التي أُقروا عليها؛ وإن كانت مسخوطة عند الله عز وجل وعند عباده المؤمنين إلا أنه تعالى يدفع عنها - شرعًا وقدرًا - بالمسلمين، رغم مَقته عز وجل لها، قال ابن القيم: "فهو يدفع عنها وإن كان يُبغضُها، كما يدفع عن أربابها وإن كان

يُبغضهم"[١]، ولنقارن هذا بهدم الصهاينة للمساجد في فلسطين وتدنيسهم لها، وكذلك فعل الصرب في البوسنة والأمريكان في أفغانستان والعراق، وقبلهم فعلت أوربا في الكنائس في حروبها مع بعضها وفي المساجد حين استعمرت بلاد المسلمين، وهذا يدل على عظمة دين الإسلام وعظمة شريعة الجهاد فيه.

لذلك على المسلم أن يُؤمن بأن ما يُسمى بـ "**التطبيع**" مع العدو المحارب القاتل للمسلمين، خاصةً إذا كان مغتصبًا مُدنِسًا لمُقدساتهم، مثل اليهود في أرضنا المحتلة؛ محرَّمٌ في كل أشكاله، لا يُحلّ المسلم من واجبات الولاء والبراء، ولا يُبرر أو يُجيز الإخلال بها.

وأي استجداء للغرب بتطبيق قانون دولي أو قانون دولي إنساني، أو محاكمة مجرمي عدونا المحتل الغاصب في فلسطين كمجرمي حرب أو نحو ذلك؛ عبث، كما كان عبثًا إبّان قتل أهلنا في البوسنة وأفغانستان والعراق!

استهلاك طاقة الغضب والألم والمشاعر النبيلة في جدالات رخيصة، وتبييض ساحة النظام الدولي وأصحاب القرار فيها، وتملُّص من مسئولية الدماء والدمار، وإخضاع قضية شريفة لأدوات قذرة، فحقوق الإنسان "وهم"؛ نظام صنعه الغرب ليستعلي به على باقي البشر ويتحكم فيهم، حين يأتي الوقت المطلوب منهم احترام هذه الحقوق سيوجدون كل المبررات لإهدارها، وبالقانون الذي هم صانعوه أصلًا.

(١) محمد بن أبي بكر قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، مرجع سابق، ج ٣ ص ١١٧٠.

إنه وسيلة أخرى ومَكر مختلف لإخضاع مقاومة الغاصب، وتقليم مخالبها وفَرمها، وهل استرد السود في جنوب إفريقيا حقوقهم بالقانون الدولي والمحاكم الدولية؟! وهل حصل الأيرلنديون على انفصالهم عن بريطانيا وأسسوا دولتهم بالنضال السياسي؟!

لك أن تعلم أن اليونسكو عام ١٩٤٧م حين وقفت على عتبة مشروع الإعلان العالمي لحقوق الإنسان – وهو الإعلان الذي ستُعلنه الأمم المتحدة بعد ذلك مع نهاية العام التالي – تحيّرت في الأسس الفلسفية التي ستبني عليها هذه الحقوق، فأرسلت لنحو مائة وخمسين مفكرًا حول العالم ليُجيبوا عن هذا السؤال: على أي أساس فلسفي يجب أن يقوم هذا الإعلان؟

فكانت الصدمة! إذ اختلفوا اختلافًا شديدًا وتناقضوا حتى بات من المستحيل الوصول إلى أرضية مشتركة، وأمام هذا التناقض والتشتت، واضطُر اليونسكو إلى اتخاذ أحكم قرار – في نظرهم – وقتئذٍ وهو: دفن نتائج هذا الاستبيان وإخفاء كل أثر له! فلا نستغرب من تعقيب فرانسوا فلاهو François Flahaut على هذه الأزمة الفكرية بقول: "الجميع مطالبون بقبول هذا الإعلان، بشرط واحد: ألا يسأل أحد عن أسسه ومبرراته"، وبتعليق آلان دي بينوا Alain De Benoist: "فما بدا كإنجاز إنساني عظيم، في جوهره ليس إلا فرض للسُّلطة بثوب قانوني أنيق" [1]!

إن حقوق الإنسان في زمن " جُحْر الضَبّ" معياره السيد

(1) De Benoist, Alain; Beyond Human Rights; Defending Freedoms, Translated by Alexander Jacob, Arktos Media Ltd., 2011, p. 34.

الغربي، كما يُحدِّد ما هي هذه الحقوق؛ يُحدِّد من يستحقها ومن لا يستحقها وطريقة استحقاقها ومتى! "امتيازات" يمنحها هذا السيد للآخرين وقتما شاء وكيفما شاء، فهو القاضي المُنصِف ونحن المتهم المُذنب، وهو المُعلِّم المُربِّي ونحن التلميذ المُشغِّب! نحن الإنسان الذي لم تكتمل إنسانيته، في ميانمار والإيجور والعراق وأفغانستان والبوسنة وسوريا وفلسطين والسودان.

وفي كل مرة نكتوي بنار إجرامهم ويُضرمون النار في حقوق الإنسان التي صاغوها؛ سيُقسمون أنهم يفعلون ذلك لإعادة بناء أُمتنا وتخليص مجتمعنا من الشر؛ فعلها "بوش" و"بلير" في العراق، وعلى دربهما يسيرون في "غزة"، المصائب نفسها تتكرر بحذافيرها دون أي استيعاب للدرس!

فهذا النظام – نظام حقوق الإنسان – صُمِّم خصيصًا لإعادة هيكلة الناس وفق خوارزمية السيد الغربي لا ضدها، فهو "كتالوج" تبريري ليس أكثر، وكما هو تبريري لحماية مصالح الغرب وأيديولوجيته؛ تبريري لقمع كل ما هو ضد ذلك.

حقوق الإنسان في عالمنا أن تحصل على حقك بنفسك، ثم يُعطي العالم لك يومًا تحتفل فيه بذكرى حصولك على هذا الحق إن بقيت حيًّا!

هذه هي "**الإنسانية**" في أسمى معانيها!

إن أمكر ما استُدرجنا إليه حين أوهمونا بأن الإنسانية هي إنسانية جدًّا، فهي الرحمة وهي الخير وهي الحق، هي الربُّ مصدر الحقوق التي ينبغي أن تُمنح، خاصةً إذا كان مانحها "أبيض"، فلا يحتاج لإلهٍ ولا قوانين سماوية ولا وعد بجنة ولا

تخويف من نار، هو "فقط" يعرف ما له وما عليه!

إن استيلاء الإنسان على السيادة فيه، واحتكاره لمعايير القيم والأخلاق، هو الذي أنتج هذا العالم المشوَّه، الذي يُقلقه الاعتداء على حيوان أكثر مما يُقلقه إزهاق روح أكثر من خمسين ألف نفس وتجويع أكثر من مليونَي إنسان!

القرآن نبَّهنا لهذا المصير الموحش وهذا التردي في الفطرة، حين أخبرنا حقيقة الإنسان وأنه لا يصلح أن يضع معايير لنفسه، فقال: { **وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا** } [سورة الأحزاب: الآية ٧٢]، { **إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ** } [سورة إبراهيم: الآية ٣٤]، { **كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى** } [سورة العلق: الآية ٦]، { **وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا** } [سورة الإسراء: الآية ١١]، { **قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا** } [سورة الإسراء: الآية ١٠٠]، { **وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ** } [سورة فُصلت: الآية ٤٩].

في تفسير قول الله تعالى: { **وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا** } [سورة النساء: الآية ٢٨]، يُبرر المفسِّرون هذا الضعف بأن الإنسان مهما تجرَّد؛ عاجزٌ عن مخالفة هواه، تستميلُه رغباته وتُملي عليه قِيَمه، يقول ابن تيمية: "الأصل في بني آدم الظلم والجهل"[١]، وقال في موضع آخر: "والجهل والظلم هما أصل كل شر"[٢].

إن أي إصلاح لحقوق الإنسان المعاصرة، لا يستبطن تفكيك

---

(١) أحمد بن عبد الحليم بن تيمية: مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ج ١٥ ص ٣٥٧.

(٢) أحمد بن عبد الحليم بن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، مرجع سابق، ج ١ ص ١٤٨.

معابدها وتدنيسها بدلًا من تقديسها؛ محكومٌ عليه بالفشل، وسيَجُر أي قضية تُناقش باسمها وفي ضوئها لإرادة السيد الغربي وما انفرد بصياغة قواعده ومرتكزاته وقوانينه، في حين أن تدنيس هذه المعابد لا يعني سوى مقاومة هذه الإرادة وإخضاعها والعودة بها لجوهر الصراع الأساسي بين الحق والباطل، والإسلام والكُفر، ووجود قوة عُليا فوقية تُسيطر على البشر وتحكم مساراتهم وتحدد المعايير والشروط من خلال الوحي.

وأي جُهد لا يصب في توحيد صف المؤمنين وتقويته وتثبيته وتحريضه على المقاومة بكل أشكالها؛ تثبيط لعزيمة المسلمين، وتهرُّب من مسئولية الدماء ونوع من الخذلان لهم، والخذلان قُعُور ودركات، فلا طريق سوى الذي خطَّه الشرع للتحرر وإقامة دين الله تعالى في الأرض.

خاتمة

ما زال الحقُّ والباطلُ يتفقان في أن كليهما في عين أهله حقٌّ، لكن الفرق بينهما كبير؛ فأهل الباطل سرعان ما ييأسون؛ لأن الباطل لا يولِّد قوةً للدفع، لا في ذاته ولا لسبب خارج عنه.

أما أهل الحق فلا يتمكن اليأسُ من قلوبهم؛ لأن القوةَ التي تدفعهم للانتصار للحق لا تنشأ من إيمانهم بالحقِّ ذاته فحسب، بل من يقينهم بأن خصومهم على الباطل؛ ولذلك فهم في ثباتٍ مطلق حتى يُظهرَهم الله على عدوهم، ولو كانوا أقل عددًا أو أضعف عتادًا، وكلما اضطُهدوا من أجل العقيدة التي يؤمنون بها؛ ازدادوا ثباتًا عليها، بل لن تُؤتِيَ عقيدتُهم أُكُلَها في الناس إلا بقدر ما يلاقونه من الصعاب من أجلها، فهم على يقينٍ بأن دعوتَهم لن تبلغَ منتهاها إلا بالبذل والتضحية، وأنهم لن يُدركوا غايتَها أبدًا براحةِ الأبدانِ وسلامةِ الأنفسِ وكَنْز الأموال، بل لن تعلوَ صيحتُهم التي يُريدون لها أن تدوِّي في العالم إلا ببذل التضحيات وتَحمُّل مشاق الجهاد، وتخليص النُّفوس من الشُّح والهوى والدَّعة والراحة، ومعرفة حقيقة الابتلاء بالنعم، وإعلاء الهمة، والثِّقة بالنفس وبسلامة الطريق الذي يسيرون فيه، وعدم الانخداع بالواقع أو الجهل به، وعدم التخاذل والركون إلى الدنيا، أو التمسك بشيء من حُطامها وشوائبها، والإيمان بأن التاريخ لن ينسى صبْرهم وجَلَدهم في سبيل قضيتهم التي يُؤمنون بها، ويُرخصون من أجلها كلَّ غالٍ ونفيس، وعدم تعجُّل النتائج.

فمهما طال الزمن واشتدت ظلمةُ الليل، واستحالت القضيَّة واستحكمت حلقاتُها، فهُم على يقينٍ بأنه لا بُدَّ للحقِّ أن يرتفع، وللظُّلمةِ أن تنجلي، وللقضية أن تُحَلَّ.

إن حملة الإسلام بحقٍّ لا يرضخون للباطل، وإن بلغوا ذروة محنتهم، أو كان أهل الباطل في أقصى قوتِهم؛ لأنهم يُدركون أن قوتَهم لم ولن تنبُع يومًا من كثرةٍ أو عتاد، بل نبعت دائمًا من عقيدتهم التي يُؤمنون بها ويذودون عنها؛ ولذلك كانوا على يقينٍ من نصرِ الله وفرّجه.

لكن النصرَ لا يأتي بمحض إدراك الحقِّ أو نُصرة قضيته، بل بالثبات عليه ثباتًا بعد ثباتٍ، حتى يظن أهل الحق - ويظن أهل الباطل معهم - أنهم مهزومون لا محالة، وهنا يكون الامتحانُ الشديدُ لعقيدتِهم، ليظهرَ معدنُهم الحقيقيُّ، فيتميز المخلصُ الصادقُ من المدَّعي الكاذب.

فمن فَقَدَ الثقةَ بالله فقد حجبَ عن نفسه نورَ الأمل، وحرَم روحَه من نسمةِ الفرَج، ومن يئسَ من وعدِ الله بنصر عباده المؤمنين؛ فقد حبسَ قلبَه في سجنِ الكرب، وسلَّمَ عُنقَه لمشنقة الغَمِّ، فإن الله ناصرُ المؤمنين الصابرين القابضين على الحق لا ريب، ومُعلي رايتهم وكلمتهم لا محالة، وما التضييق إلا لتقوية العود، وما التشديد إلا لتهذيب النفس المؤمنة على ألا تُبذل إلا في كل غالٍ نفيس، وما تأخير النصر إلا للاستمتاع بلذته بعد أن يُنال، ولاستقباله واستبقائه بعد أن يُحرز، فهل يُختبر الذهبُ إلا بالنار؟! وهل يُذاب الحديدُ إلا بالصهر؟! وهل تُستأصل الأورامُ الخبيثة إلا بالقطع؟!

فهكذا أهل الحقِّ الصادقون، ما زالوا من الله في تمحيصٍ بعد

تمحيص، وشدةٍ بعد شدة؛ حتى ينفرَ منهم الغِشُّ والضعفُ والجُبنُ والأنانيةُ والزغلُ والارتياب، وكم من ابتلاءٍ لم يكن مقصوده الاختبار ورفع الدرجة، إنما كان لاجْتِثاثِ الشرِ أو مَحْق أسباب الشُّؤْم أو فتح أبواب الخير والسعادة السَّرْمَدية، وقديمًا قيل:

ومَـن أرادَ العُـلاَ عفـوًا بلا تعـبٍ
قضَى ولم يقضِ من إدراكِها وطَرَا
لا يُـدرَكُ المجدُ إلا بعـد مؤلـمةٍ
ولا يَتِـمُّ المُـنى إلا لـمَن صبَـرَا

وإن الخير الموعود به المؤمن ليس بالضرورة أن يشهده كل المؤمنين في الدنيا، فبعضهم قد لا يشهده في الدنيا، لكن اليقين أن كلهم يشهده في الآخرة، فنجاح المؤمن ليس بإدراك السعادة في الدنيا، إنما إدراكها في الآخرة، لأن غايته في الدنيا تحقيق العبودية، فإن نجح في ذلك تحققت له سعادة الآخرة، وذلك قوله تعالى: ﴿ **وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ** ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨٥]، قال الفخر الرازي: "تنبيهٌ على أن الإنسان حينما كان في الدنيا كأنه كان في النار"[١]، فإذا ما زُحزح عنها وعن نار الآخرة فقد فاز.

فلعلنا نثوبُ يومًا إلى رشدِنا، ولعل قلوبنا تَمتلئ إيمانًا ونورًا، ولعلنا ننضوي تحت لواء جادٍّ صادقٍ عاملٍ دءوبٍ مُخلِص.

(١) محمد بن عمر بن الحسن الرازي: مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٩ ص ٤٥٣.

ثبت المراجع

(١) أحكام القرآن: محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي الإشبيلي المالكي (ت ٥٤٣هـ / ١١٤٨م)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية (بيروت)، الطبعة الثالثة ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م

(٢) أحكام أهل الذمة: محمد بن أبي بكر قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ / ١٣٥٠م)، تحقيق: يوسف بن أحمد البكري وشاكر بن توفيق العاروري، رمادي للنشر (الدمام)، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م

(٣) الأدب المفرد: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري (ت ٢٥٦هـ / ٨٧٠م)، تحقيق وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية (بيروت)، الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م

(٤) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: محمد بن أبي بكر قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ / ١٣٥٠م)، تحقيق: محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف (الرياض)

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (ت ٧٢٨هـ / ١٣٢٨م)، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب (بيروت)، الطبعة السابعة ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م

(٦) تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري): أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري (ت ٣١٠هـ / ٩٢٣م)، دار التراث (بيروت)، الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ

(٧) تاريخ دمشق: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١هـ / ١١٧٦م)، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م

(٨) تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد (التحرير والتنوير): محمد الطاهر بن عاشور (١٨٧٩: ١٩٧٣م)، الدار التونسية للنشر (تونس)، ١٩٨٤هـ

(٩) تفسير الشعراوي: محمد متولي الشعراوي (١٩١١: ١٩٩٨م)، مطابع أخبار اليوم (القاهرة)

(١٠) تفسير القرآن العظيم: إسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٣م)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م

(١١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة (بيروت)، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م

(١٢) جامع البيان في تأويل آي القرآن (تفسير الطبري): محمد بن جرير بن يزيد الطبري (ت ٣١١هـ / ٩٢٣م)، تحقيق: أحمد محمد شاكر ومحمود محمد شاكر، مؤسسة الرسالة (بيروت)، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م

(١٣) الجامع الكبير (سنن الترمذي): محمد بن عيسى بن سَوْرة الترمذي (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي (مصر)، الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م

(١٤) جامع المسائل: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (ت

٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م)، تحقيق: محمد عزير شمس، دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ

(١٥) الجامع المُسند الصحيح المُختصر (صحيح البخاري): محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري (ت ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م)، تحقيق: محمد زهير ناصر الناصر، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار طوق النجاة (بيروت) عن المطبعة الأميرية (بولاق)، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ

(١٦) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي): محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت ٦٧١هـ/ ١٢٧٣م)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية (القاهرة)، الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م

(١٧) جامع معمر بن راشد (ملحق بمصنف عبد الرزاق): معمر بن راشد، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المجلس العلمي بباكستان، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ

(١٨) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: أحمد بن عبد الله بن إسحاق المعروف بأبي نعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م)، دار الكتب العلمية (بيروت)، عن مطبعة السعادة (مصر)، ١٤٠٩هـ

(١٩) دلائل النبوة: أحمد بن الحسين بن علي أبو بكر البيهقي الشافعي (ت ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م)، تحقيق: د. عبد المعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية (بيروت)، ودار الريان للتراث، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م

(٢٠) الرسالة القُشَيْريّة: عبد الكريم بن هوازن القُشيْريّ (ت ٤٦٥هـ/ ١١٢٠م)، تحقيق: د. عبد الحليم محمود ود. محمود بن الشريف، دار المعارف (القاهرة)

(٢١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (١٨٠٢: ١٨٥٤م)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية (بيروت)، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ

(٢٢) زاد المعاد في هدي خير العباد: محمد بن أبي بكر قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م)، مؤسسة الرسالة (بيروت)، مكتبة المنار الإسلامية (الكويت)، الطبعة السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م

(٢٣) الزهد: أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١هـ / ٨٥٥م)، تعليق: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية (بيروت)، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م

(٢٤) الزهد والرقائق: عبد الله بن المبارك المرْوزي (ت ١٨١هـ / ٧٩٧م)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية (بيروت)

(٢٥) سنن ابن ماجه: محمد بن يزيد بن ماجه القزويني (ت ٢٧٣هـ / ٨٨٧م)، تحقيق: شعيب الأرناءوط وآخرين، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الرسالة العالمية (بيروت)، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م / ١٤٣٠هـ

(٢٦) سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث بن إسحاق المعروف بأبي داود السِّجِسْتاني (ت ٢٧٥هـ)، تحقيق: شعيب الأرناءوط ومحمد كامل قره بللي، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الرسالة العالمية (بيروت)، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م

(٢٧) سنن الدَّارِمي: عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل أبو محمد الدَّارِمي (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩م)، تحقيق: حسين سليم أسد، دار

المغني (السعودية)، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ / ٢٠٠٠م

(٢٨) السنن الكبرى: أحمد بن شعيب بن علي أبو عبد الرحمن النسائي (ت ٣٠٣هـ / ٩١٥م)، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة (بيروت)، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م

(٢٩) السنن الكبرى: أحمد بن الحسين بن علي أبو بكر البيهقي الشافعي (ت ٤٥٨هـ / ١٠٦٦م)، مكتبة ابن تيمية (القاهرة)، عن مجلس دائرة المعارف النظامية (حيدر أباد)، الطبعة الأولى ١٣٤٤هـ

(٣٠) سنن سعيد بن منصور: سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني (ت ٢٢٧هـ / ٨٤٢م)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الدار السلفية (بومباي)، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م

(٣١) سير أعلام النبلاء: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٨م)، تحقيق: شعيب الأرناءوط، مؤسسة الرسالة (بيروت)، الطبعة الثالثة ١٩٨٥م / ١٤٠٥هـ

(٣٢) السيرة النبوية: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري (ت ٢١٣هـ / ٨٢٨م) تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده (القاهرة)، الطبعة الثانية ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م

(٣٣) شُعب الإيمان: أحمد بن الحسن بن علي أبو بكر البيهقي الشافعي (ت ٤٥٨هـ / ١٠٦٦م)، تحقيق: د. عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد (الرياض)، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م / ١٤٢٣هـ

(٣٤) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل:

محمد بن أبي بكر قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ / ١٣٥٠م)، دار المعرفة (بيروت)، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م

(٣٥) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان: محمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبد أبو حاتم البُستي (ت ٣٥٤هـ / ٩٦٥م)، تحقيق: شعيب الأرناءوط، مؤسسة الرسالة (بيروت)، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م

(٣٦) صحيح ابن خُزيمة: محمد بن إسحاق بن خُزيمة النيسابوري (ت ٣١١هـ / ٩٢٣م)، تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي (بيروت)

(٣٧) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمُعطلة: محمد بن أبي بكر قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ / ١٣٥٠م)، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة (الرياض)، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ

(٣٨) صيد الخاطر: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م)، تحقيق: حسن المساحي سويدان، دار القلم (دمشق)، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م

(٣٩) الطبقات الكبرى: محمد بن سعد بن منيع البغدادي المعروف بابن سعد (ت ٢٣٠هـ / ٨٤٥م)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر (بيروت)، الطبعة الأولى ١٩٦٨م

(٤٠) طريق الهجرتين وباب السعادتين: محمد بن أبي بكر قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ / ١٣٥٠م)، الدار السلفية (القاهرة)، الطبعة الثانية ١٣٩٤هـ

(٤١) غُثاء كغثاء السيل (مقال): مُحب الدين الخطيب (١٨٨٦:

١٩٦٩م)، صحيفة الفتح، العدد ٣٤٩، ٢١ صفر ١٣٥٢هـ / ١٥ يونيو ١٩٣٣م.

(٤٢) في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق (القاهرة)، الطبعة السابعة عشر ١٤١٢هـ

(٤٣) قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد: محمد بن علي الحارثي المعروف بأبي طالب المكي (ت ٣٨٦هـ / ٩٩٦م)، تحقيق: د. عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية (بيروت)، الطبعة الثانية ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م

(٤٤) لطائف الإشارات (تفسير القُشيْريّ): عبد الكريم بن هوازن القُشيْريّ (ت ٤٦٥هـ / ١١٢٠م)، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة)، الطبعة الثالثة

(٤٥) المُجتبى من السنن (السنن الصُّغرى): أحمد بن شعيب بن علي أبو عبد الرحمن النسائي (ت ٣٠٣هـ / ٩١٥م)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، مكتب المطبوعات الإسلامية (حلب)، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م

(٤٦) مجموع الفتاوى: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (ت ٧٢٨هـ / ١٣٢٨م)، تحقيق: عبد الرحمن بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف (المدينة النبوية)، طبعة ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م

(٤٧) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت ٥٤٢هـ / ١١٤٨م)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية (بيروت)، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ

(٤٨) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: محمد بن أبي بكر بن أيوب، المعروف بابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ / ١٣٥٠م)، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي (بيروت)، الطبعة الثالثة ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م

(٤٩) مساوئ الأخلاق ومذمومها: أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي (ت ٣٢٧هـ / ٩٣٩م)، تحقيق: مصطفى بن أبي النصر الشلبي، مكتبة السوادي (جدة)، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م

(٥٠) المُستدرك على الصحيحين: محمد بن عبد الله بن حمدويه النيسابوري المعروف بأبي عبد الله الحاكم (ت ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية (بيروت)، الطبعة الأولى ١٤١١هـ / ١٩٩٠م

(٥١) مسند ابن الجَعْد: علي بن الجَعْد بن عبيد الجوهَري (ت ٢٣٠هـ / ٨٤٥م)، تحقيق: عامر أحمد حيدر، مؤسسة نادر (بيروت)، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م

(٥٢) مُسند أبي يعلى: أحمد بن علي بن المثنى التميمي المعروف بأبي يعلى الموصلي (ت ٣٠٧هـ / ٩٢٠م)، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث (دمشق)، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م

(٥٣) مُسند أحمد: أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١هـ / ٨٥٥م)، تحقيق: السيد أبو المعاطي النوري، عالم الكتب (بيروت)، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م

(٥٤) مُسند البَزَّار (البحر الزخار): أحمد بن عمرو بن عبد الخالق العتكي المعروف بالبَزَّار (ت ٢٩٢هـ / ٩٠٥م)، تحقيق: محفوظ

الرحمن زين الله وآخرين، مكتبة العلوم والحكم (المدينة المنورة)، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م

(٥٥) المسند الصحيح المختصر (صحيح مسلم): مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابوري (ت ٢٦١هـ / ٨٧٥م)، تحقيق وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي (بيروت)

(٥٦) المصنف: عبد الرزاق بن همام بن نافع اليماني الصنعاني (ت ٢١١هـ / ٨٢٧م)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي (بيروت) عن المجلس العلمي (الهند)، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ

(٥٧) المصنف في الأحاديث والآثار: عبد الله بن محمد بن إبراهيم العبسي المعروف بأبي بكر بن أبي شيبة (ت ٢٣٥هـ / ٨٥٠م)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد (الرياض)، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ

(٥٨) معالم السُّنن (شرح سنن أبي داود): حمد بن محمد بن إبراهيم البستي المعروف بأبي سليمان الخطابي (ت ٣٨٨هـ / ٩٩٨م)، المطبعة العلمية (حلب)، الطبعة الأولى ١٩٣٢م / ١٣٥١هـ

(٥٩) المعجم الكبير: سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (ت ٣٦٠هـ / ٩٧١م)، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية (القاهرة)، الطبعة الثانية

(٦٠) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): محمد بن عمر بن الحسن الملقب بالفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ / ١٢١٠م)، دار إحياء التراث العربي (بيروت)، الطبعة الثالثة ١٤٢٠هـ

(٦١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: محمد بن أبي بكر قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ / ١٣٥٠م)، دار الكتب العلمية (بيروت)

(٦٢) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (ت ٧٢٨هـ / ١٣٢٨م)، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م

(٦٣) المنتخب من مسند عبدُ بن حُميد: عبد الحميد بن حُميد بن نصر الكَسّي (ت ٢٤٩هـ / ٨٦٣م)، تحقيق: صبحي البدري السامرائي ومحمود محمد خليل الصعيدي، مكتبة السُّنة (القاهرة)، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م

(٦٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: إبراهيم بن عمر البقاعي (ت ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م)، دار الكتاب الإسلامي (القاهرة)

(٦٥) الوسيط في تفسير القرآن المجيد: علي بن أحمد بن محمد الواحدي (ت ٤٦٨هـ / ١٠٧٦م)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية (بيروت)، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م

(66) Beyond Human Rights; Defending Freedoms: Alain De Benoist, Translated by Alexander Jacob, Arktos Media Ltd., 2011, p. 34.

تثبيت الأقدام

إيمانيات قضايانا الكبرى

الإيمان لا يترك الإنسان دون أن يُعيد تشكيل نظرته ويُذكره بفطرة التوحيد، ويشحن وجدانه بمعانٍ يستحيل على غير الدين الوصول لها، فتمتلئ نفسه؛ حمدًا وشكرًا واستغفارًا وتسبيحًا وتكبيرًا وذكرًا، فلا يتركه فريسةً للهم والكرب والأسى والحزن وحيرة العقلانية، بل يُعيد له توازنه ويصحّح مساره، ويُعلّمه كيف تكون الأخلاق فعلاً وحركة لا اسمًا ووصفًا، وكيف أن العبودية منهج حياة لا محيص عنه! وإذا كانت آخرته وفي يده فسيلة؛ ماذا يجب عليه أن يفعل!

وهذا هو الفرق بين الدين والمنظومات المادية الوضعية التي تنفصل التكاليف فيها عن الأخلاق، وتتعالى على مشاعر الناس لأنها تتعالى على واقعهم، أما الإسلام فلأنه لا يتعالى على الواقع ولا ينفصل عنه؛ لا يحط من مشاعر الناس، بل يستجيشها ويقويها ويستخرج منها طاقة دافعة للعمل، فيخبره بوضوح: من هو، ولماذا يواجه ما يواجه، وماذا عليه حين يواجه، وفي أي صف هو، وماذا ينبغي أن يفعل! كل ذلك حتى يوجِّه طاقته النفسية نحو البذل والغرس، لا في دار الدنيا فحسب، ولا في دار الآخرة فقط، بل في الدارين معًا.

فكل قضية من قضايا المسلمين، وكل ظاهرة في حياتهم لها "إيمانيات"، من عقائد وسُنن وأصول أحكام تُحيط بها، ويتشكل من خلالها وعينا بهذه القضية وهذه الظاهرة، وهذا لزوم كون المسلم "عبدًا" لله عزَّ وجلَّ.

والحقيقة أن إيمانيات قضايا المسلمين الكبرى؛ تُسوَّد فيها عشرات الصفحات، ولذلك حاولتُ أن أركز على أهم أفكارها، أبثُّ من خلالها الأمل في النفوس وأشحذ الهمم، فكل سوء ظن بالله والعياذ بالله، ثم بالأمة، ثم بالنفس؛ إنما هو نتيجة نقص معرفته بهذه الإيمانيات، وعلى قدر ما يكتسب الإنسان من ثقة في هذه الثلاثة: بالله وبالمؤمنين وبنفسه؛ على قدر ما يُمكنه مقاومة الواقع وتغييره، فالمسلم لا يسترد عافيته كمسلم إلا حين يثق في الله ويستعيد ثقته في نفسه وفي المؤمنين.

أركـان للدراسات والأبحاث والنشر
Arkan for Studies Research and Publishing
www.arkansrp.com
9798989474394